سنوات الخطر

المراهقة ومُشكلاتها

تأليف

د. تشارلز دافي

تقديم وتحرير

د. منال عبد العزيز

الكتاب: سنوات الخطر (المراهقة ومشكلاتها)

الكاتب: د. تشارلز دافي

تقديم وتحرير: د. منال عبد العزيز

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية


هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www.bookapa.com **E-mail:** info@bookapa.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

دافي، تشارلز

سنوات الخطر (المراهقة ومشكلاتها) / د. تشارلز دافي، تقديم وتحرير / د. منال عبد العزيز

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٣٣ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٢ – ١٢١ – ٩٩١– ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع: ٣٠٥٧ / ٢٠٢١

سنوات الخطر

المراهقة ومشكلاتها



مقدمة

يُعد د.تشارلز دافي واحدا من أشهر خبراء التربية الإنجليز، فهو طبيب نفسي شهير، وقد قصر اهتمامه على مرحلة المراهقة، فكرس أبحاثه على الصبية والشباب بين الحادية عشرة والتاسعة عشرة، فدرس المشكلات النفسية والاجتماعية التي يواجهونها، وإمكانيات علاج مختلف الأزمات والاضطرابات النفسية والجسمانية، التي يتعرض لها الشبان والفتيات، وعن هذه المرحلة وضع الكتاب الذي نقدمه اليوم، مستعينا فيه بخبرته الكبيرة في هذا المجال، وأيضا مستفيدا من دراسات أخرى أجراها أقرانه، فاتخذ من سجلاتهم فصلًا لعدد كبير من الأمثال: أمثال الشذوذ، وأمثال التصرفات الشائنة، مما سجله الأطباء الذين يهتمون بعلاج الشبان والفتيات، وذلك للتدليل على مدى الخطر الذي يتعرض له الشباب، من فتيان وفتيات، في المجتمع الإنجليزي المعاصر.

وبالطبع فالمشكلات التي يمر بها الشباب في تلك المرحلة العمرية لا تقتصر فقط على المجتمع الانجليزي، فالشباب في كل المجتمعات يمرون بأنواع مختلفة من الأزمات، قد لا يدركها الآباء فيرفضون السماع لهم ومشاركتهم همومهم، بل قد يلومون الشباب وينتقدون طريقتهم في التعامل مع مشكلاتهم، مما يؤدي إلى تفاقمها، وإلى حدوث فجوة بين الآباء والأبناء تؤدي إلى ما يسمى بصراع الأجيال.

وقد تنشأ مشكلات الشباب من التغيرات الجسمية الكبيرة التي تحدث لهم، كما قد تنشأ من المواقف الجديدة التي يواجهونها وهي مواقف متداخلة، وتنشأ أيضًا بعض هذه المشكلات من تحقق النضج الجنسي، وما يفرضه الدين والأخلاق من قيود على إشباع هذا الدافع، كذلك فمن الطبيعي أن ينعكس الوضع الاقتصادي على نفسية الشباب ويؤدي إلى الكثير من المشكلات.

***

يرى تشارلز دافي أن مشكلة الفراغ من أهم المشكلات التي يمكن أن تواجه الشباب، بل هي المشكلة الأكبر، لأنها تتسبب في عدد لا نهائي من الأزمات التي قد لا تخطر على البال.

وقد أوضح تشارلز دافي إن عدم فهم الآباء والأمهات لهذه الحقيقة الثابتة، يفتح الطريق سهلة ميسورة أمام الانحدار والهبوط والتصرف الشائن.

إنه يسلم الشاب أو الفتاة إلى نوع من القلق والحيرة قد يكون خطير النتيجة، رهيب النهاية، وخاصة إذا شغلت الأم عن ابنتها أو ابنها لسبب من الأسباب. وقد تتشاغل الأم، بجهالة وغباوة، وعدم فهم أو أدراك، عن كل ما يجري في الخفاء. ويومئذ لن تجد الفتاة، ولن يجد الفتى، سياجًا متينًا من تربية قويمة قوية، تحميها أو تحميه من هوة الانحدار والسقوط. فأول واجبات الأم يقتضيها إذن أن تملأ نفوس أولادها وبناتها بالطمأنينة والثقة والأمان، فيحملهم ذلك من غير شك على الإفضاء إليها بكل مشكلاتهم أولًا فأولًا، ملتمسين لها الحل الأمين المتين الذي يمنع الزلل، ويحول دون الخطأ قبل وقوعه.

ولعل "الفراغ" أخطر مشكلات شباب اليوم، إن الشباب والفراغ مفسدة للمرء أي مفسدة ذلك الفراغ الذي لا يعرف شبابنا كيف يملئون وقته، ويفيدون منه فلا يضيع هباء منشورًا من سني حياتهم. لقد أعجبني من بحث د. تشارلز دافي هذا الجزء الخاص بما يفعله الشباب في أوقات فراغه.. هناك.. في

المجتمع الإنكليزي.. إن شبابنا في مسيس الحاجة إلى معرفة المزيد من القدرة على شغل أوقات فراغه.. وفي مسيس الحاجة إلي إدراك ما يجب عليه من بدء مرحلة عمله مبكرًا.. فيعمل في فترات الفراغ، سواء أكان هذا العمل لنصف اليوم، أو لفترة العطلة المدرسية.. إن العمل، وبخاصة في سن المراهقة، يخلق طبيعة جديدة للشاب، ويهيئ له السبيل التي تحقق له ذاتيته التي يحيره ويقلقه البحث عنها.

ومن المعروف أن مرحلة المراهقة والشباب تتسم بحدة المشكلات التي تواجه المراهقين والشباب، نتيجة للرهافة والحساسيّة وعدم الضبط الانفعالي، وقلة الخبرة لمواجهة مواقف الحياة، والنظرة الذاتيّة في الحكم على ما يواجههم من أشياء ماديّة أو معنويّة، ومن نتائج ذلك ما يوقع الشباب في مشكلات ومواقف تتناقض مع قيم المجتمع، الأمر الذي تبدو معه أهميّة مسؤولية الآباء في تهيئة المناخ المناسب في البيئة الأسريّة والمدرسيّة والمجتمع، للحد من المشكلات التي تواجه الشباب ومساعدتهم على تجاوزها.

وهـذه المشـكلات قـد تتخـذ أبعـادا تعليميـة أو أسـرية أو اجتماعية عامة. كالاغتراب، ومن المعروف أنّ الاغتراب كمشكلة اجتماعيّـة، تعـاني منهـا مجتمعـات كثيـرة فـي العـالم المعاصـر، ويحدث عندما يركز الفرد على الجانب المادي دون المعنويّ إذ إنّ الجانـب الاجتمـاعيّ والقـائم علـى القـيم يـؤدي إلـى رابطـة اجتماعيّة قويّة بين الأفراد.

كذلك قد يواجه الشباب في هذه المرحلة مشكلات ترتبط بـالتعليم أو بالمدرسـة عمومـا، فقـد تكـون المدرسـة ممثلـة فـي سلطتها سببًا من أسباب التمرد من الشباب من حيث القيود التي تفـرض علـى الشـباب ممثلـة فـي الواجبـات المدرسـيّة المطلوبـة بانتظـام، ومراقبـة الحضـور والانصـراف والتغيـب عـن الدراسـة، وسلطة وأوامر المدرسين ومدراء المدارس، ومن شأن ذلك شعور الشـباب بالخضـوع والاستسـلام والـنقص تجـاه سـلطة لا تقبـل المناقشة، وخاصة في مرحلة المراهقة، والتي يتأكد فيها إثبات الـذات، والرغبـة فـي التمـرد. لكـن المشـكلات الأكبـر تـرتبط بالأسـرة نفسـها، فقـد يواجـه الشـباب أنماطًـا متعـددة مـن المشكلات الأسريّة، قد تكون فوق طاقاتهم في مواجهتها وقد يترتـب عنهـا اضـطرابات نفسيّة حادة أو تمزق في الـروابط بـين

الأبناء والآباء، وقد يرجع ذلك لضعف الروابط الأسرية نتيجة التفكك الأسريّ الناجم عن الهجر بين الزوجين، أو الطلاق أو تعدد الزوجات وإيثار بعض الأبناء على الآخرين، أو الوفاة أو الخلافات المستمرة بين الوالدين.

وقد يتسبب التسلط الأبوي أو التراخيّ في التعامل، في مشكلات قد تنشأ عن الحرمان من الرعاية الأبويّة أو التقصير في إشباع الحاجات الأساسيّة، أو الإفراط في التدليل والإفساد وما يتبع ذلك من الاتكاليّة، أو التسلط والقوة الزائدة وما يتبعها من عدوانيّة. كما أن ضعف الرقابة الوالديّة أو اللامبالاة من قبل الوالدين في التوجيه والإرشاد والنصح وانعدام الرقابة والمسؤولية.

ومن أهم المشكلات الأسريّة التي تواجه الشباب نتيجة لهذه الأسباب التمرد على الأسرة والرغبة في التحرر من التبعيّة الطفليّة، والرغبة في تحقيق الذات وتحقيق الاستقلال العاطفيّ، حيث يدل ذلك على تأكيد الذات ومقاومة السلطة في إصدار الأوامر والنواهي التي يستلزم طاعتها دائمًا.

***

نبتت فكرة الكتاب من رسالة تلقاها الكاتب من سيدة، كانت قد تلقت في مرحلة ما من حياتها علاجا نفسيا في عيادته، وهي تستشيره في مشكلة تعرضت لها ابنتها ذات الثلاثة عشر عاما إذ أدى انفرادها بأحد الزملاء إلى حدوث علاقة جنسية بينهما، فحدث الحمل نتيجة لها، لتصبح الطفلة أما صغيرة، يعرض الكاتب للرسالة ويعلق بقوله :"إن شباب هذه الأيام يجد نفسه تحت رحمة ظروف قاهرة. وهو يندفع إلى الخطأ غير مقدر عواقب ما يفعله، إنه حائر قلق، قد ينحدر إلى الخطأ ولكنه لا يجد القدرة على التفكير لنقص مهم جدًا في تربيته وتنشئته". قبل أن يتساءل: ماذا فعلنا لنحمي شبابنا من الضياع والحيرة؟، وسرعان ما يجيب: نحن لم نفعل شيئًا، ولكنا تركنا الشباب نهبًا لمتاعبه. ويشير الكاتب إلى رواية لوليتا لفلاديمير نابوكوف، ويرى أنها تعكس الكثير من حيرة شبابنا المعتصر وقلقه، ولوليتا هذه تشبه ابنة صاحبة الرسالة، فهي الفتاة العصرية التي تتعجل أعوامها لتكون كاملة النضج، فتاة ارتبطت بعدد من الأولاد بعلاقات وهي بعد في العاشرة، ثم أحبت رجلًا كبيرًا ناضجًا لا يقل عمره عن عمر والدها وطاردته حتى حملت منه.

ثمة فتيات كثيرات مثل لوليتا وسالي، إذ أن سن النضوج قد أصبح مبكرًا، فكما أثبتت تلك الإحصائيات التي نشرتها مجلة "سنداي بكتوريال" نجد أن معظم شبابنا في سن الثانية عشرة، أو بعدها بقليل قد كونوا معلومات جنسية وافية، ربما كانت خاطئة، ولكنها خطرة في سن كهذا ينعدم فيه الفهم والتقدير، فإذا أضفنا إلى ذلك القلق والحيرة، وهما طابع هذا العصر، وأضفنا إليها جميعًا عدم توافر الحماية المنزلية التي تزرع الاطمئنان والثقة في نفوس شبابنا، فإن النتيجة هي ما يحدث اليوم وما سيحدث غدًا من ألوان الانحراف.

ونتج عن ذلك أن عدد الأطفال غير الشرعيين بل ضعف الشرعيين ويرجع السبب في ذلك إلى استغراق الآباء والأمهات في الحياة اليومية وانشغالهم عنهم.

***

يجعل الكاتب من سن السادسة عشرة حدا فاصلا في حياة الشباب، وفي كتابه أيضا، فيخصص القسم الأول من الكتاب للحديث عن مشكلات الشباب من الحادية عشرة وحتى وصولهم إلى السادسة عشرة، ومنها يبدأ القسم الثاني الذي يمتد إلى التاسعة عشر، وبالطبع فمرحلة الشباب لا تنتهي عند هذا

السـن، فلعـل الكاتـب يقصـد المراهقـة باعتبارهـا مرحلـة فـوران وفتـوة، يعقبهـا الوصـول إلى النضـج، وينتقـل الخبيـر التربـوى مـن مشـكلة الأمهـات الصـغيرات إلـى مشـكلة الـزواج المبكـر، وهـو مشكلة لأنه يؤدى إلى زيادة حالات الطلاق، مما يهدد استقرار الأسرة، فالزواج المبكر قد رأي فيه البعض حلا لما قد يصيب الشباب من انحراف وسلوك مشين، ولكن مثل هذا الزواج لو تم على غير قاعدة أو غير معرفة ولا إدراك بأهداف الزواج وأهداف الحياة ذاتها من إقامة أسرة سعيدة، ينتهي بالفشل.. عندما تخف جذوة الحب التي دفعت بالشاب والفتاة إلى الزواج، وعندئذ لا يجدان من إدراكهما أو تفهمهما للحياة رادعًا يساعدهما على الوصول بزواجهما إلى شاطئ النجاح.

ويقـول "إن للـزواج المبكـر عنـد شـبابنا معنـى واحـدا هـو: "تحقيـق الذاتيـة ومواجهـة العـالم بهـا". ولكـن هـذا لا يمكـن أن يصـلح أساسًـا للـزواج، أنـه مجـرد انحـراف، فكمـا يلجـأ الفتـى المراهق إلى محاكاة زملائه في تصرفاتهم الانحرافية ليثبت لنفسه وللنـاس، أنـه قـادر علـى أن يكـون شخصـية مسـتقلة متكاملـة، فكذلك هو يتزوج ليثبت لغيره من الكبار أنه لا يقل عنهم قدرة.

على أن الزواج يجب أن يكون استعدادًا نفسيًا رماديًا خالصًا قبل أن يكون مجرد رغبة في المحاكاة والنكايات، وإلافمصيره دائمًا الفشل.

وينهي الكاتب القسم الأول من كتابه مؤكدا على دور الحب كقوة بانية، فالحب هو العاطفة التي تسير العالم، وتتحكم في كل مظاهر الحياة الطيبة من حولنا.

ويجب أن نعلم أولادنا وبناتنا الحب، كما يجب أن نفتح مداركهم على قوة النبل والسمو في تلك العاطفة، خاصة عندما يبدءون مرحلة نضجهم لنجنبهم هذه المآسي.

***

وأخيرًا يرى الكاتب أن الحل يتمثل في أن يتفهم الآباء مشكلات أبنائهم وطبيعة المرحلة العمرية التي يمرون بها، وأن يشاركوهم أحلامهم، ويناقشوهم فيها، ويساعدوهم على ولوج الطرق التي تؤدي بهم إلى تحقيق الآمال، ويختتم الكتاب بقوله "نصيحتي المفيدة لكل أب ولكل أم، هي أن يعطوا أبناءهم وبناتهم، في هذه السن بالذات من السادسة عشرة حتى التاسعة فرصة أن يحققوا ما يسعون إليه، لقد دلت إجابات الشباب

والفتيات على أنهم يعرفون تمامًا ما يسعون إليه، وأغلبهم يرسم لنفسه أهدافًا يريد أن يحققها، ويعرف أيضًا أنه يجب أن يقيم مستقبله على خطوط سليمة لما يجد فيه خيرًا لنفسه، وأملي أن أكون قد رسمت الخطوط العريضة لما يدور في نفوس فتياننا وفتياتنا حتى يجد الآباء ما يسترشدون به، فينصفون أبناءهم وبناتهم".

د. منال عبد العزيز

القسم الأول

قبل السادسة عشرة

شباب أيامنا

نجحت رسالة في إثارة قلقي، وكانت سببا في عكوفي على وضع هذا الكتاب، الرسالة تلقيتها من سيدة تطلب استشارتي في شأن أقلقها، ولعلها خصتني بهذه الرسالة لأسباب أهمها إنني كنت من أقنعها بأن تتزوج مرة ثانية، وكانت مطلقة ولديها ابنة، كنت لفترة طبيبها النفسي حتى بعد أن تزوجت، ولقد ولَّدت هذه الرسالة في نفسي دافعًا قويًا إلى أن أدرس الموضوع الذي أخذ منه مادة لكتابي هذا وهو "شباب أيامنا" هذه إن جيل الآباء يقفون اليوم في حيرة كبيرة حيال تصرفات أبنائهم، وخاصة في تلك الفترة التي يبدءون فيها نضجهم وإدراكهم لحقائق الحياة.

قالت المرأة في رسالتها: يوم احتفلت ابنتي "سالي" بعيد ميلادها الحادي عشر قالت لي: "أنا الآن في حاجة ماسة إلى سوتيان.

وبالفعل اشتريت لها واحدًا مصمم خصيصًا من أجل الفتيات الصغيرات، وكلفني ثلاثة أضعاف ما يكلف السوتيان الذي أستعمله أنا.

وبعد أيام قليلة، جاءت سالي لتقول لي: البنات في سني يرتدين الكورسيهات والحذاء ذا الكعب العالي لا "الصندل" فاشتريت لها حذاء ذا كعب عال، وأحضرت لها "مشدات"، وأصبحت تنظر إلى ما تفعله قريناتها وتعمل بجهد على أن تكون مثلهن، واشترت دراجة لتركبها في ذهابها وإيابها من المدرسة، وطالبت بمصروف إضافي حتى تستطيع أن تذهب إلى السينما، وتشاهد أفلام الأسبوع المعروضة في دور السينما. وعلى الرغم من أنني كنت أقول لها أحيانًا أن الفيلم المعروض لا يستحق المشاهدة، إلا أنها كانت تجيبني قائلة: "إن جميع الفتيات والفتيان يرون الأفلام كلها، بدون استثناء، إنهم لا ينتظرون عرض فيلم جيد كما كان الحال أيام كنت أنت صغيرة يا أمي".

وعندما بلغت سالي الثالثة عشرة، كانت تبدو ناضجة متفتحة تمامًا، وشجعتها على الذهاب إلى "كوافير"، ولقد لاحظت أنها تزداد رزانة، وبدا أن غناءها المتصل الذي كانت لا تنقطع عنه ليلًا نهارًا، قد ذهب إلى غير رجعة، وبدأ واجبها المنزلي يضايقها، وظننت أن هذا مما يصاحب هذه السن، كانت تقول لنا: "لماذا يتوجب علينا أن نفعل هذا كله. ماذا يفيد علم الحشرات ربة البيت"؟ وكان زوجي وقد غدا في مكانة والدها

يحاول أن يفسر لها ما قد تفيده ربة البيت من علم الحشرات، ولكن سالي كانت تزداد ثورة وانفعالًا، ونظل جميعًا تسودنا سحابة من الصمت القلق حتى تلقي بقلمها وتنهض لتلوذ بغرفتها. وشعرت سالي ذات صباح بأنها متعبة، فلا تستطيع أن تتناول فطورها، وقلت لها: "أنت تأكلين الحلوى بكثرة. اجلسي لفترة وسوف أتصل بالمدرسة".

ولكنها سارعت تقول: "لا. لا تفعلي هذا. إن الرحلة على الدراجة سوف تجعلني أشعر بتحسن".

وفي الأيام الثلاثة التالية، ظل الحال على ما هو عليه، الشعور بالنفور والمرض والزهد في الطعام، وبدأت أشعر بالقلق، فقلت لها: "سوف نذهب إلى عيادة الطبيب يوم السبت القادم، ربما كنت تعانين بعض الاضطراب في الهضم".

وصاحت سالي تجيب: "كوني فطنة يا أمي. إنه أقرب إلى الحمل منه إلى عسر الهضم". ولابُد أنني بدوت مضحكة تلك اللحظة، وقد تسمرت في مكاني وقدح الشاي في يدي، وفكي يرتعش، وأنا متأكدة أن فمي كان مفتوحًا من كثرة الدهشة وأنا أصيح: لا..".

واستدارت سالي إلي وهي ثائرة وصاحت تقول: ماذا كنت تتوقعين، إن البيت يظل خاليًا حتى الساعة السادسة مساء كل يوم، إن من المحزن أن يصعد المرء إلى البيت ولا يجد أحدًا يتحدث معه. لقد اعتدت بعد أن حصلت على الدراجة أن أذهب في جولة مع بعض الرفاق من صفي، ثم تطور الأمر تدريجيًا فأصبحت الجولة قاصرة علي أنا وهو، زميل لي في الرابعة عشرة. وكان مثلي ليس في بيتهم هو الآخر سواه، ولهذا بدأت أدعوه إلى بيتنا ليساعدني في أداء واجبي المنزلي.

وعادت سالي تصمت لبرهة أخرى، ولابد أن قسمات وجهي وما ارتسم عليها قد أثر في أعصابها، فقد دفعتني إلى "الكنبة" وجلست بجانبي، ورغمًا عما كنت أعانيه فقد أدركت أنها لا تزال فتية القلب طفلة صغيرة في أعماق نفسها، وصاحت سالي: "لست شريرة يا أمي مطلقًا، لقد كففت عن مصاحبته بعد عدة أسابيع لأنه لم يعد يستطيع أن يفكر في شيء آخر سوي هذا "الشيء". وقد أصبح الآن مرعبًا فهو قد بدأ يقص قصصًا مخجلة للأولاد الآخرين عني وعن.. أوه يا أمي. إنني أريد أن أترك المدرسة وأهرب". "ماذا سيحدث لي؟! لقد بدأ الأمر كله "كنكتة".. صدقيني، لو أنك كنت موجودة في البيت عند عودتي

من المدرسة، لما كنت قد خالطت هؤلاء الفتيان ولا فعلت هذا". وأحطتها بذراعي، وخلال سحابة من دموعي قلت لها "إن كل شيء سيكون على ما يرام" على الرغم من أنني كنت أعتقد من صميم فؤادي أن الأمر لا يبدو له حلًا. وجعلتها تستريح في ذلك اليوم، وبدأت أتصرف معها كأنها طفلة مريضة في حاجة إلى عناية.

لذلك استقلت من عملي، ذلك العمل الذي كان دخلي منه يهيئ لنا بعض الكماليات التي ستحرمنا منها هذه الاستقالة. وفي المساء كان علي أن أخبر زوجي، وبانت عليه هو الآخر، علامات الألم المقرون بالدهشة، تمامًا كما حدث لي، ولكنه كان أوسع أفقًا وأقدر على أن يجد الحل. قال لي: "إن على سالي أن تذهب وتبقى عند جدتها، وستقول نحن أنها مريضة بالتهاب رئوي وأننا قد أدخلناها إحدى المصحات، وبهذه الطريقة يمكنها أن تعود وتواجه الجيران بكل ثقة وبلا خجل، لابد أن نحفظ لها حياتها من أن تتحطم وخاصة أنها لم تزل بعد في الثالثة عشرة". وقبّلت زوجي، وشكرته في صمت، لأنه لم يكن من هذا النوع الجاف من الرجال الذي لا يقبل نقاشًا في زلة فتاة صغيرة لا تقدر عواقب ما تفعله.

وزرت ناظرة مدرسة سالي، وأخبرتها بالحقيقة، ولم تبد عليها الدهشة أبدًا، وكانت أولى كلماتها هي: "أعتقد أنك لم تكوني موجودة في البيت عند عودتها يوميًا من المدرسة.. في العام الماضي كان عندنا خمس فتيات في صف واحد حدث معهن نفس ما حدث لسالي، وتسبب ما حدث لهن في مشكلة عاجلة ثم عدن جميعًا بعدئذ إلى المدرسة"

وسألتها في دهشة: "عدن إلى المدرسة؟

وأجابتني قائلة: "نعم عدن. إن التعليم حتى الخامسة عشرة كما تعلمين إجباري.. تعالي وقابليني بعد فترة، وسوف نفعل ما في وسعنا لنساعد سالي".

وشكرتها ثم أخذت القطار لأري أمي وهي سيدة في الستين من العمر، لا شيء يمكن أن يؤثر فيها، وأخذت المشكلة فورًا بين يديها حتى قبل أن أنتهي من حديثي، وكان علي أن أشتري قماش ستائر وأغطية لحجرة نومي القديمة، وقالت أمي: "يجب أن نعالج الأمور بكل بساطة.. إنني أرحب بها".

وفي خلال أسبوع تركت سالي في رعاية جدتها. ولم يخطر لنا إطلاقا أن نتصل بالغلام المسئول عن هذه الكارثة، لقد كنا

نعتقد أنه كلما قل عدد الذين يعرفون نبأ هذه الكارثة، كلما خف وقعها. وبمضي الأشهر قررت أن أخبر جيراني أنني أشعر بالضياع في غياب سالي، وإنني أفكر في تبني طفل، والتبني كما يعلم الكثيرون تستغرق إجراءاته وقتًا طويلًا، ولن يكون من الغريب أن نتبع عودة سالي بطفل نستحضره إلى البيت.

وقبل مولد الطفلة بفترة، قررنا أن نغير حياتنا، فإذا زوجي يحصل على وظيفة جديدة في مهنة جديدة، واستطاع أن ينجح، وعندما وضعت سالي طفلها وشفيت من آثار الوضع، بدأت حياة جديدة سعيدة في وسط جديد وبين أناس جدد.

وسجل الطفل علي أنه ابني أنا، وعلى الرغم من أن بعض الناس كانوا يبتسمون للفرق الشاسع بين عمر طفلي وعمر ابنتي إلا أن أحدًا لم يوجه تلميحًا في هذا الشأن.

وسالي الآن قررت أن تصبح مُدرسة، إن أمومتها الباكرة على ما يبدو قد قتلت كل الطيش في قلبها. وكم يؤلمني قلبي عندما تغرق كل ليلة في بحر من الواجبات المنزلية دون أن تبدي أي تذمر أو تنهد ما لا كما كانت في السابق.. وهي زيادة على هذا تتولى في الصباح الباكر توزيع الصحف قبل أن تذهب إلى المدرسة لتكسب بعض نفقاتها، وعندما نقول لها أن ذلك أمر

غيـر ضـروري تبتسـم وتقـول: "هـذا أقـل مـا أسـتطيع أن أفعلـه، وعنـدما أصبح مدرسـة مؤهلـة فسوف أنفق راتبي جميعه عليك وعلى والدي وعلي".

وعندما كنت أراقبها تجتاز رواق الحديقة، أتمنى ألف مرة أن أعـود بالسـنين إلـى الـوراء لأسـتعيد الفتـاة التـي اختفـت، الفتـاة المرحة التي جنا عليها سوء تصرفي، إنني المسئولة، لقد كان من سـوء التصـرف أن أذهـب بهـا إلـى "الكـوافير" ليرتـب لهـا شـعرها بتسريحة غير عادية، وأن أوافقها على أن ترتدي ثيابًا غير عادية وأن أهبها مصروفًا أكثر مما تحتاج.

كنـت أحـب أن أسـمع النـاس يقولـون: "إن هـذه الأسـرة لا ينقصها شيء".

ولكنـي أعلـم الآن، أنـه علـي الـرغم مـن البلـوغ المبكـر، فإن فتاة الحادية عشرة تحتاج إلى تربية تحميهـا أكثر ممـا تحتـاج إلـى أي شيء يمكن أن يشترى بالمال.

وذلـك يعنـي، الضـوء المرحـب خلـف البـاب، والشـاي المعـد الذي ينتظرها، والمستمع الذي ينسجم معها ويشجعها، كل هذه الأشـياء تسـاعد الفتـاة فـي هـذه السـن أن تبقـى فـي نطـاق عمرهـا

وتحفظها من الرغبة في التظاهر بأنها كبيرة، لا يهمني البتة أن جولييت كانت في الثالثة عشرة عندما عشقت روميو، إنها لم تعش حتى يصبح عمرها أربعة عشرة.. أليس كذلك؟!

تلك هي الرسالة التي تلقيتها، ولعل القارئ قد استطاع أن يقف على حقيقة الموضوع الذي أريد أن أثيره.

إن شباب هذه الأيام يجد نفسه تحت رحمة ظروف قاهرة. وهو يندفع إلى الخطأ غير مقدر عواقب ما يفعله، إنه حائر قلق، قد ينحدر إلى الخطأ ولكنه لا يجد القدرة على التفكير لنقص مهم جدًا في تربيته وتنشئته.

ومما لا شك فيه أن الأسس التربوية قد تقدمت عن ذي قبل، ولكن النقص الكبير يقع على عاتق البيت.

إن ظروف الحياة اليوم تحتم على الأم أن تشارك رب الأسرة في تنمية الدخل، ولهذا فأكثر الأمهات يعملن كموظفات، وقد يدر عمل الأم بعض دخل إضافي يمكن الأسرة من توفير بعض الكماليات لها، ولكنه لا شك يترك الأطفال بلا رعاية ولا رقابة، وخاصة هؤلاء الذين يبدءون حلقات تطورهم ونموهم، ويخطون بسرعة إلى مرحلة البلوغ الجسماني بين الحادية عشرة والسادسة

عشرة. على أن هناك عوامل كثيرة أخرى تسبب ضياع الشباب وانحرافه، وتواجده في قلب دوامة من القلق والحيرة الذين يدفعانه آليًا إلى الانحراف.

ورأى البعض أن الظروف الظروف التي تميز عصرنا والتفكك الاجتماعي الذي تفرضه الحياة المتحضرة، من عوامل انحراف الشباب، وقد يكون هذا البعض على حق، ولكني أتساءل:

ماذا فعلنا لنحمي شبابنا من الضياع والحيرة؟.. الحقيقة نحن لم نفعل شيئًا، ولكنا تركنا الشباب نهبًا للمتاعب.

بين لوليتا .. وجيمس دين

عنوان هذا الفصل قد يبدو غريبًا نوعا ما، إلا أنني لا أجده كذلك، فلوليتا بطلة قصة ثار حولها جدل كبير، واحتدم حولها النقاش في المجتمعات داخل بلادنا، إنجلترا، بنوع خاص.

والقصة كتبها كاتب اسمه نابوكوف روسي الأصل أمريكي المولد، وقد لاقت نجاحًا كبيرًا جدًا.

ولعل نوبوكوف هذا يستحق هذه الشهرة التي حققتها له قصته؛ لأنها تعكس الكثير من حيرة شبابنا المعتصر وقلقه، ولوليتا هذه بطلة القصة فتاة لا تفترق عن سالي، بطلة القصة التي روتها الرسالة التي جاءتني من أن من بين مرضاي وعرضتها صريحة في الفصل الأول.. لوليتا هذه كما يقول النقاد، الفتاة العصرية التي تتعجل أعوامها لتكون كاملة النضج، فتاة ارتبطت بعدد من الأولاد بعلاقات وهي بعد في العاشرة، ثم أحبت رجلًا كبيرًا ناضجًا لا يقل عمره عن عمر والدها وطاردته حتى حملت منه.

تلك هي القصة، وكتب "ماس آبوت" مقالًا تحت عنوان: "ربما كانت تعيش لوليتا في شارعك" جاء فيه: "لوليتا امرأة على الرغم من أنها لم تتم الثانية عشرة من عمرها بعد. لوليتا تطلي شفتيها بأحمر الشفاه وتتصرف كما لو كانت غانية ضليعة في فنون الإغراء والفتنة. لوليتا كان لها علاقات غرامية مع عدد كبير من الفتيان، وكانت في الوقت نفسه تطارد رجلًا بالغًا وتنصب حوله شباكها حتى سقط صريعًا بهواها.

إن لوليتا عنوان كتاب ينافي الآداب العامة في إنجلترا وأمريكا، وبعض الناس قال في وصفة أنه "مخزي" والبعض الآخر زعم أنه تحفة أدبية. لقد ترجمت قصة لوليتا إلى ثماني لغات، ولكنها صودرت في فرنسا وبعض ولايات أمريكا..".

"إن لوليتا هذه طالبة خيالية في مدرسة، ولكنها لا شك تحتل مكانًا لها في حياتنا، إنها تعيش في مدينتك بل أكثر من هذا، قد تجدها تعيش بالقرب في الشارع الذي تعيش فيه".

"والحقيقة الواضحة هي أن الأمهات لا يبدو أنهن يفهمن بناتهن اللواتي يسرعن الخطأ نحو النضوج، والبنات اليوم، في عصرنا هذا ينضجن بسرعة أكبر وفي سن أصغر من البنات في العصر الماضي.

إن متوسط السن التي تبلغ فيها البنات هي الثالثة عشرة والنصف، ولكن كثيرات منهن اليوم تبحن نساء ناضجات قبل أن تصلن هذا السن بكثير.. هكذا يؤكد مدير القسم الطبي بوزارة التعليم الانجليزية، ولكن عددًا غير قليل من الأمهات لا زلن يعاملن بناتهن في هذه السن، علي أنهن طفلات صغيرات رغم أنهن قد صرن ناضجات".

"ولهذا ليس من النادر أن نجدهن ينحرفن، لا لشيء إلا ليثبتن للعالم أنهن كاملات النضوج، هذا ما أكده لي فرانك داوثري، مدير القسم الاجتماعي في وزارة التربية الإنجليزية".

ومثل هذه الحقائق لا يمكن تجاهلها عند البحث في سر انحراف فتياتنا، خاصة في أول سني نضجهن وتفتحهن، إن عشرات الأمهات يهملن العناية ببناتهن ويتجاهلن حاجتهن إلى الرعاية والتوجيه الصحيح، وعشرات أخريات يتركنهن وجهًا لوجه أمام تلك الحيرة التي تلازم سني النضج الأولى ويتشاغلن عنهن بأشياء تافهة جدًا، كارتياد النادي بصفة مستمرة يوميًا وترك البيت خاليًا لا تجد فيه الفتاة أحدًا يستقبلها عند عودتها من مدرستها، فتجد الفرصة لأشياء كثيرة كأن تغدو واحدة من أفراد عصابة من الفتيات والفتيان للعبث والجنون.. والسقوط.

وليس الفتيان في هذه السن وما بعدها بأسعد حالًا، أن متوسط سن البلوغ عندهم ترتفع من ١٤سنة إلى ١٥ سنة، ولكن هناك أكثر من سبب لتكامل نضجهم، لقد أجرت مجلة "صنداي بكتوريال" بحثًا بين الفتيان الذين لم يتجاوزوا الثالثة عشر من عمرهم، واتضح أن أكثر من ثمانين بين مائة شاب يعرفون حقائق جنسية مثيرة من قراءتهم للكتب الجنسية والمجلات التي اعتادت أن تعالج قضايا الجنسين، بل اتضح أن حوالي ستين شابًا من كل مائة كانت لهم تجارب جنسية بين الرابعة عشرة والثامنة عشرة.

وهناك رأي يقول أن الحرب هي سبب هذا البلاء، فهي التي فتحت طاقة شباب العالم على القلق والخوف والاندفاع إلى الاستهتار المجنون، وأصبح الشاب المثالي في نظر شبابنا هو هذا الفتي القلق الحائر الذي لا يستقر على وضع معين، هذا الـ... "جيمس دين" الذي يستهتر بكل شيء ويشترك في عصابات للطلبة ويصطحب البنات إلى رحلات خلوية قد تمتد أيامًا كاملة. إن عشرات الألوف من الشبان، ليس في إنجلترا وحدها بل في العالم كله، قد اتخذوا من "جيمس دين" بطلًا أعلى، ومثلًا يتخذونه، وأكثر من مرة استطعت أن أجد واحدًا من

هؤلاء الشبان يندفع في حماقة لتقليد جيمس دين، بل لقد كنت مرة أعمل مشرفًا اجتماعيًا لمدرسة متوسطة في إيست لندن، وكان جيمس دين قد بدأ يشتهر وبدأت المجلات المصورة تنتشر له الصور في كل الأوضاع، ولاحظت أن أكثر من شاب يحاول أن يتشبه بجيمس دين، وأكثر من فتاة تحاول أن تجد بين أقرانها شبيهًا لجيمس دين، وساقتني الصدفة مرة إلى كشف عصابة من بين التلاميذ، كانت تخرج لتسرق السيارات وتنطلق بها في رحلات مجنونة في ضواحي لندن، واستطعت بعد دراسة نفسية مستفيضة أن أصل إلى أن الفتيان الذين كونوا هذه العصابة إنما كانوا يحاكون بطلهم المثالي جيمس دين. كان فيلمه "طيش الشباب" قد عرض في أكثر من دار واحدة للعرض في لندن، وكان الطلبة مفتونين، بدوره الكبير فيه فحاكوه فيما فعله، وقصة هذا الفيلم معروفة طبعًا، فهي تروي قصة عصابة من الطلبة تخرج في رحلات مجنونة بسيارات مسروقة، زمرة يملأها القلق والحيرة فتندفع في طيش لتفعل كل مستهتر وطائش من الأمور.

ومعنى هذا كله أن الشك في كل القيم الموجودة هو أساس المشكلة لانحراف الشاب وطيشه. إن البيئة التي يتربى فيها شبابنا اليوم، والظروف الاجتماعية المحيطة به قد غيرت إيمانه

بالمثل العليا وجعلته في شك دائم حيال كل القيم الطيبة التي توارثناها على مر السنين، إن شبابنا يعاني أزمة نفسية أساسها للتغير والتبدل في نظم حياة الأسرة. فهو لم يعد يحس تلك الطمأنينة التقليدية التي كانت تدفع عنه الحيرة والقلق، فأساس الشعور بهذه الطمأنينة أن يجد آباءه ساهرين عليه، ولكن ماذا نفعل لشاب لا يكاد يرى والده في البيت إلا لمامًا، لأن الأب مشغول طوال يومه ليدر بعمله المتصل دخلًا يكفي النفقات المرتفعة للمعيشة اليوم، ولا يكاد يعثر على والدته لتكون درعه الواقي فهي أما من ذلك النوع العامل من النساء، ذلك النوع الذي يقضي سحابة نهاره في وظيفة يساعد دخلها في نفقات الأسرة، كما كانت أم سالي تفعل، أو واحدة من هذه النسوة اللواتي يقضين أغلب أوقاتهن في النادي ودور اللهو، وعندئذ لا يجد الشاب متنفسًا لحيرته وقلقه إلا أن يقضي وقته بين زمرة الشباب قلقه مثله، يدفعها قلقها إلى الانحراف.

والحقيقة هي أن سن النضوج عند شبابنا قد أصبح مبكرًا فكما أثبتت تلك الإحصائيات التي نشرتها مجلة "سنداي بكتوريال" نجد أن معظم شبابنا في سن الثانية عشرة، أو بعدها بقليل قد كونوا معلومات جنسية وافية، ربما كانت خاطئة، ولكنها

خطرة في سن كهذا ينعدم فيه الفهم والتقدير، وإن كانت برامج التعليم لا تعطي إلا نذرًا يسيرًا من تشريح الجسد البشري، إلا أن هناك مجلات وكتب مهمتها أن تعطي كثيرًا من المعلومات الجنسية التي تثير الشباب وتتلاعب بأفكاره وأهوائه، فإذا أضفنا إلى هذا كله القلق والحيرة، وهما طابع هذا العصر، وأضفنا إليها جميعًا عدم توافر الحماية المنزلية التي تزرع الاطمئنان والثقة في نفوس شبابنا، فإن النتيجة مع الأسف الشديد هي ما يحدث اليوم وما سيحدث غدًا من ألوان الانحراف بين شبابنا.

لقد اعترفت الأم التي صدرت برسالتها الفصل الأول من كتابي هذا، بأن ابنتها سالي قالت لها: إن كل الأولاد والبنات يرون الأفلام المعروضة في دور السينما، ولم يعد الحال على ما كانت عليه أيام كنت صغيرة شابة مثلي، أيامها كنت تنتظرين عرض فيلم جيد لترينه.

وهكذا تكاد السينما تلعب دورًا كبيرًا جدًا في تطوير عقلية الشبان والفتيات، فهي بما تتعرض له من موضوعات قد تخلق أبطالًا في كل الميادين، وفي الجريمة بنوع خاص، إذ أن أفلام العنف والقسوة تترك آثارًا واضحة شبابنا، وتدفعهم دفعًا إلى محاكاة ممثلين كجيمس دين أو ألفيس بريسلي راقص (الروك

آدندرول) الأول. إن ما يعرض من أفلام أوروبية داخل بلادنا، إنجلترا، وما يسمى عادة بالأفلام الواقعية يتميز بالإثارة والرخص في عرض قطاعات لا تشرف من المجتمع الأوروبي فيما بعد الحرب، إن هذا النوع من الأفلام ليعتبر خطرًا مباشرًا بما يعرض من "عري" و"جنس" صريح لا مداراة فيه ولقد شاهدت في رقابة الأفلام عينة مما قصته مقص الرقيب من مشاهد سينمائية مخزية لو أن رجلًا عاقلًا مجربًا شاهدها لأحس بثورة عارمة فما بالك بشاب صغير مراهق دماؤه حارة ونفسه تموج بالرغبات! لقد شاهدت مطاردات بين شبان وفتيات في أماكن خلوية واغتصابات عنيفة، وشاهدت أجسادًا نارية مثل جسد برجيت باردو النجمة الفرنسية العالمية تستلقي من مياه بحيرة ثم تغادرها لتلقي بنفسها بين يدي حبيب يجلس على شاطئ البحيرة، هكذا بلا روية أو تفكير أو تمهل.

حتى الأغاني التي يسمعها شبابنا اليوم، هي الأخرى تحتشد بكلمات "ساخنة" ملؤها تنهدات حارقة وموسيقى مجنونة كموسيقى الجاز أو الروك آند رول، وأقولها صريحة: إن شبابنا اليوم يتلقى دعوة مجنونة إلى الانحراف والانحدار إلى الضياع. وتتكاثف في تبليغه هذه الدعوة كل وسائل النشر والتسلية من

الصحف والكتب والسينما والراديو، حتى التليفزيون يلعب دوره في عرض أفلام الجريمة والمغامرات على الشباب بلا رقيب.

إن كل هذه الوسائل تعطي الشباب مفاهيم خاطئة تصيبهم بنوعٍ من الاستهتار المجنون. إنهم يشعرون بأن القلق يميس في أعماق نفوسهم، ويتساءلون في حيرة: ماذا يمكن أن يحدث للعالم غدًا؟" وعندما لا يجدون جوابًا شافيًا على تساؤلهم هذا وعندما لا يجدون الطمأنينة والسكينة في بيوتهم، عندما يفتقدون الصدر الحنون والكلمة المتفهمة والتوجيه الصحيح من آبائهم وأمهاتهم الذين تشغلهم عنهم ظروف الحياة، عندئذ يندفعون في ثورة مجنونة يحاولون أن يحققوا ذاتيتهم المفقودة، ويواجهون العالم ليحاولوا إثبات هذه الذات، وهنا غالبًا ما تقع الكوارث.

إن هذا التعبير عن الذاتية يتشكل ويتبلور في تصرفات قد نجدها نحن الكبار منحرفة، ولا تليق بشبابنا ولا المثل العليا التي نرتضيها لهم. إن الفتيات يصبحن أمهات صغيرات ويسقطن بحثًا عن هذه الذاتية تمامًا كما فعلت سالي، وتمامًا كما عاشت لوليتا بين دفتي كتاب نوبوكوف، والفتيان أيضًا يلجئون إلي تكوين العصابات والشلل التي تتباهى بالخطأ، وترتكب أقذر الجرائم، ويصبح الانحدار والسقوط إلى الهاوية هو القاعدة.

ويجب علينا، نحن الباحثين الاجتماعيين المعنيين بشئون الشباب، أن نحترم ما نسميه بصيانة ماء وجه الآباء والأمهات، لا يجب علينا ألا نضع أمامهم الحقائق عارية بل يجب أن نحاول دائمًا أن نجد تبريرًا مقنعًا لتصرفات الأبناء، وأن نوجه إلى الآباء والأمهات ما يستحقون من لوم.

على أنني يجب أن أقول، أن هذا الحياء لا يجدي، إنه يجعل الآباء والأمهات بمنجاة من اللوم وتأنيب الضمير أن الصيحة اليوم يجب أن تكون مرتفعة، يجب أن تهز كل الضمائر، أن الآباء والأمهات يتعين عليهم أن يدركوا الخطر الذي يسوقون إليه أبناءهم وبناتهم بهذا الإهمال منهم.

فمن الخطأ أن ندفن رؤوسنا في الرمال كالنعام، بينما الشباب مندفع في جنون نحو ما يدمر حياته ويهدد مستقبله.

بينما ينام الآباء

إن القلق والحيرة التي يعانيها شبابنا اليوم، تفرضه ظروف حياتنا، ويسببها استغراق الآباء والأمهات في الحياة اليومية وانشغالهم عنهم.

ذلك القلق وتلك الحيرة يدفعان بالشباب إلى أن يقوم بقسط من التصرفات الشاذة، التي يريد أن يثبت بها وجوده ومكانه تحت الشمس، وعادة تنحصر هذه التصرفات في اتجاه معين هو الصلات بالجنس الآخر.

وليس من المعقول أن ترتبط هذه التصرفات من الشباب خاصة في سن البلوغ، بأي نوع من الحب، إنها مجرد صلات جنسية غير مشروعة، قد تبدأها الفتاة وقد ينساق إليها الفتى في غيبة عن الآباء والأمهات.

والحقائق التي كونتها بعد بحث طويل استنفدت فيه كل تجاربي وتجارب زملائي الأطباء، تلك الحقائق مستقاة من دراسة عشرات الحالات التي وضعت تحت الدراسة والبحث، حالات عرضت علي وعلى بعض الزملاء، وهي أن كشفت عن شيء فإنما تنبئ عن أننا نعرض شبابنا لمأساة.. إن شبابنا يعاني ثورة،

ثـورة سـرية لا يـدركها الآبـاء ولا يجـدون حيالهـا إلا أن يلـوذوا بحيائهم، ولكن كما أسلفت، نحن مضطرون إلى أن ندرس هذه المأساة ونبحث لها عن علاج، إن ما يحدث اليوم يدفعنا دفعًا إلى أن نضع الحقائق عارية أمام الرأي العام، ثم ننطلق لنبحث عن علاج منظم ناجح لها.

والأمثلة التي رويت لتدلك على ما نذهب إليه، مأخوذة من سجلات الأطباء، بل إن بعضها لا يزال موجودًا في سجلي أنا كطبيب، هذه السجلات هي المصادر لهذا البحث، هي اللحم والدم للتقرير الذي أضعه اليوم تحت أنظار الرأي العام.

ويجب أن أقـول أن الآبـاء قـد لعبـوا دورًا مهمًـا فـي هـذه المأساة، لو أنهم لم يلوذوا بالخجل، لو أنهم حاولوا أن يفهموا أن أبنـائهم وبنـاتهم في حاجة إلى رعاية وتوجيه وخاصة عنـدما تتعاظم الكارثة التي تمسك بخناق الشباب اليوم.

وقد يقول البعض أنني مخطئ، أو أنني أتعمد الكشف عن الجانب السيئ من الحياة لهؤلاء الشبان الذين لا يفعلون أكثر مما يدفعهم عمرهم الصغير إليه وعدم إدراكهم، ولكنني أحب أن أقول أنني لم أفعل أكثر من وضع النقط فوق الحروف، إنني حاولت أن أشخص "المرض" الذي يتفشى في أجساد شبابنا

اليوم، ذلك المرض الذي ينتشر في غفلة من الآباء والأمهات ويتفاعل ويتطور إلي ما هو أسوا يومًا بعد يوم.

ولقد حاولت خلال بحثي وتشخيصي أن أبحث عن أسبابه، وقلما بحثت عن أعراضه بحثًا متواصلًا عبر عشرات الحالات التي استقبلتها من سجلات الأطباء ثم حاولت في النهاية أن أقترح بعض الحلول التي تخفف من وطأة هذا المرض إن لم تكن تقضي عليه قضاء نهائيًا.

وعندما بدأت بحثي هذا الذي استغرق ثلاثة أعوام ونصف العام، كان السؤال الرئيسي الذي ملأ ذهني هو:

-ما مدي هذه المأساة، هل هي ضخمة شاملة، أم تراها مجرد ظاهرة محصورة في نطاق مدينة واحدة مثل لندن؟

وكان أول الحقائق التي حصلت عليها هي، أن هذه المأساة التي يتعرض لها شبابنا اليوم كبيرة، شاملة، وليست مجرد ثورة يعانيها بعض الشباب الذين يعيشون في مدينة كبيرة مثل لندن، إنها كارثة ضخمة لأنها تمتد من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب في طول بلادنا وعرضها. وعلى الرغم من الأمثلة الصارخة التي عددتها في الفصل الثاني من هذا الكتاب، أجدني مضطرًا إلى أن أنقل بعض الحوادث من سجلات زملائي

الأطباء لأضعها أمام أنظار الرأي العام والقراء، لا في بلادنا فقط، بل في بلاد العالم كله، حتى يتعرفوا إلى عظم الكارثة التي يندفع إليها شبابنا، ويحاولوا أن يجنبوه آثارها المدمرة.

ولقد وجد الباحثون أن حوادث الاغتصاب التي ارتكبها فتيان في سن الربعة عشرة أو أقل، وكان الاغتصاب ضحيته نساء أو فتيات، قد وصلت ٢١ حادثة. فإذا أدخلنا في حسابنا أن التقاليد والعادات التي تسود سكوتلندا، ومحافظة عائلاها تفرض على النشء تربية قاسية وقيودًا لا يمكن أن تكون لهم مجال التفكير في الانحراف أو الخطأ، إذا أدخلنا هذا الاعتبار في حسابنا أمكننا أن ندرك عظم الكارثة التي ينقاد إليها الشباب اليوم، وأدركنا أن علينا أن نبحث عن علاج سريع حاسم.

علاقات جماعية بين الفتيان والفتيات

زرت (في مارس ١٩٥٧) زميلًا من زملائي الأطباء، كان قد اختار مدينة ألوا في مقاطعة كلاك ما نشير ليعمل فيها، وكانت هي مسقط رأسه ولعل هذا هو سر اختياره لها ليعمل فيها بعد تخرجه في كلية الطب بلندن، وما إن عرف الزميل أنني معني بدراسة تصرفات الشباب الانحرافية حتى روى لنا حادثة عجيبة عرضت عليه، قال الزميل الطبيب:

لقد استدعتني إحدى السيدات، كان لها ابنة في الثانية عشرة من عمرها طالبة في المدرسة المتوسطة بالمدينة، وقالت لي العميلة أنها قد لاحظت أن ابنتها جيني قد شحب لونها وربما كان ذلك لأنها زاهدة في الطعام لا تكاد تتناول وجبة كاملة أبدا، بل إنها لاحظت عليها نوعًا من الشرود والتفكير المتصل حتى في أوقات استذكارها لدروسها، قد تترك كتابها مفتوحًا، وتعلق بصرها بالحائط وتظل هكذا فترة طويلة، بل ليت الأمر قد اقتصر عند هذا الحد، بل كثيرًا ما تقوم جيني صارخة من نومها وتنتابها حالة من الهستريا تظل تلازمها ساعات من الليل.

وتوقف زميلي الطبيب لحظة، ريثما يشعل غليونة ثم عاد يستأنف رواية القصة قائلًا:

وبالفعل كانت جيني، الابنة عندما رأيتها يبدو عليها النحول والشحوب، وتحيط بعينيها الجميلتين هالة من سواد تدل على أنها تعاني حالات من الأرق ولا تهنأ بنوم عميق متصل. وبدأت أحاول الوصول إلى سر اعتلال هذه الفتاة، ورغم أنني طبيب بشري كما تعلم فقد لجأت إلى التحليل النفسي، فقد شعرت أن عقل الفتاة الباطن يختزن خطأ معينًا يعذبها، كانت تعاني نوعًا من الشعور بالجرم ينغص عليها حياتها ويجعلها تعاني مثل هذه

الحالة. وما إن بدأت أعالج الفتاة، علي نحو ما درسنا معًا من مبادئه حتى وقفت مذهولًا أمام الحقائق التي وضعتها الفتاة، بلا وعي طبعًا أمام أنظاري. تصور أنها قد كشف لي عن عدة جرائم خلقية لم أكن أتصور أن فتاة في مثل سنها تجرؤ على التفكير لا المشاركة فيها. لقد روت لي قصة ستة من الشبان، زملائها في الدراسة قد ارتبطوا معها هي وزميلة لها تدعي بيل بعلاقات جنسية.

وعاد الزميل الطبيب لصمته، كان يبدو عليه الأسى والألم، ثم عاد يقول:

لقد كان الشبان الستة ينحدرون من عائلات معروفة في المدينة، عائلات محافظة، لها تقاليدها وعاداتها ومستواها الاجتماعي الطيب، وكان علي أن أعالج هذا الأمر بكل حكمة وروية، وكانت أقل بادرة كافية لأن تخلق فضيحة ضخمة لا يعلم مداها إلا الله، خاصة في مدينة إقليمية صغيرة كمدينتنا هذه.

لقد كانت جيني وصديقتها بيل تخرجان مع الشبان الستة إلى ظاهر المدينة بعد انتهاء اليوم المدرسي، وبالطبع كانت هذه الجولات مرتعًا خصبًا للأهواء التي تتبلور في نفوس الشبان المراهقين، وكانت كل من الفتاتين باعتراف جيني تجد لذة في

هذه العلاقات أول الأمر، ثم أصبحتا تتشاركان فيها مع الشبان الستة بدافع من الخوف، ثم أصبحت كل واحدة منهن تعاني شعورًا بالجرم يعذبها ويدفع بها إلى الذبول والسقم والاعتلال.. وكان علي أن أوقف هذه المأساة. ذهبت إلى ناظرة المدرسة، ولكن يبدو أن مثل هذا الأمر لم يكن مفاجأة لها، لقد قالت لي أن مثل هذه الحوادث تقع كثيرًا جدًا في مدرستها، بل لا يكاد يمضي شهر دون أن تكتشف علاقة مماثلة بين فتي وفتاة، أو عدة فتيان وفتاة واحدة.

وعاد الزميل الطبيب يسكت، وتنهد ثم استأنف يقول:

على كل لقد تجشمت مجهودًا كبيرًا لكي أوقف هذه المأساة، لقد جمعت الشبان الستة في مكتب الناظرة وواجهتهم بما عرفت من تفاصيل جولاتهم مع الفتاتين جين وبيل، وحاولوا جميعًا الإنكار أول الأمر، ولكنى بينت لهم أنه من الممكن جدًا أن يتولى طبيب مثلي الكشف عن حقيقة ما حدث، وهددتهم بأن استدعى آباءهم إن لم يقلعوا عما هم فيه من إثم. وهكذا فعلت مع الفتاتين جين وبيل. على أنني أعتقد أن هذا إجراء سلبي وأن مثل هذه المأساة لا يمكن أن تتوقف هكذا بهذا الإجراء الشكلي. وأعتقد أن هناك عشرات أخرى من المآسي قد

لا تنكشف هكذا بالصدفة وقد تؤدي إلى عواقب وخيمة.

ولو أن مثل هذه التصرفات الانحرافية لشبابنا كانت قاصرة على الضرر الفردي، أو كانت تصدر بشكل فردي يمكن حصره وبالتالي يمكن علاجه وتقليل أخطاره لما كان هناك سبب يدعونا إلى الخوف ومواجهة الحقائق..

إن الحقيقة البينة هي أن هناك أكثر من "لوليتا" بين فتياتنا، لوليتا التي اتخذ منها كاتب قصتها نابوكوف، لوليتا فتاة الحادية عشرة التي ارتبطت بعلاقات جنسية بأكثر من شاب، وطاردت رجلًا ناضجًا لتجعل منه عشيقًا لها وأنجبت طفلًا من هذه العلاقة غير المشروعة، هذه الفتاة التي ربما عاشت في مخيلة كاتب القصة فقط، موجودة في حياتنا اليومية الواقعية.

أعتقد بعد هذا، أن لنا العذر نحن الأطباء، أنا وزملائي الذين وضعوا سجلاتهم تحت تصرفي لأستقي منها هذه الحقائق المريعة، إذا وضعنا كل هذه المخازي أمام الرأي العام. إن الشبان والفتيات قد يعترفون للطبيب بحقائق رهيبة يخفونها عن آبائهم وأمهاتهم، وقد تفاقم الخطر، فواجبنا أن نوقظ الآباء والأمهات من نومهم ونفتح عيونهم على الكارثة التي تحلق فوق رؤوس صغارنا.

الأُمهات الصغيرات

لا أستطيع أن ألوم أحدا، فليس هذا هو الوقت المناسب لتوجيه اللوم، إلا أن هناك الكثير الذي سوف أقوله يجب أن يعيه الآباء جيدًا، وتحفظه الأمهات عن ظهر قلب.

"نحن الأطباء، لا نعتقد أن شبابنا أقل أخلاقًا من آبائهم وأمهاتهم، إنهم ليسوا شواذًا، وليست عقولهم مزارع للأفكار الآثمة الخاصة، بل هم طبيعيون تمامًا، مثلهم في ذلك مثل آبائهم وأمهاتهم".

"إن اعتقادنا الجازم، هو أن الآباء والأمهات والمدارس ونظارها والمشرفين عليها ومدرسيها؟ والأخصائيين الاجتماعيين والباحثين في شئون الشباب من رجال الحكومة هم المجرمون الحقيقيون لفشلهم من أن يحرروا الشباب من الثورة الاقتصادية والظروف الاجتماعية".

"ونحن لا نلقي هذا الكلام جزافا، إنما نفعله ونحن نعلم تمام العلم ما نقوله، لقد استقينا كل مادتنا من سجلاتنا الطبية، أنا والزملاء الذين استعنت بخبراتهم وتجاربهم العديدة واستقرت

الأمثلة التي مرات بهم في حياتهم العملية، ونحن على استعداد تام لأن نضع كل الدلائل أمام من يرغب في التثبت من صحة ما ندعو إليه، وهو نتيجة لدراسة مستمرة لتصرفات وأفعال شبابنا من سن الحادية عشرة إلى السادسة عشرة".

ولعل القارىء لهذا الكتاب يذكر قصة "سالي" التي ضمنتها أمها رسالتها إلي والتي أوردتها كما هي في الفصل الأول من هذا الكتاب، إن اعتقادي قد ازداد بأن أكثر فتياتنا يقعن تحت نفس الظروف، ويتعرضن لنفس التجربة، خاصة بعد أن وقعت في سجلات أحد الزملاء وهو طبيب يعتبر من أشهر خبراء الزواج في الأوساط الطبية، ثم أنه خبير أيضًا في مشكلات الأحداث، التي تترتب على الجنس، لقد قال لي في معرض الحديث عن انحراف الشباب:

"لا شك هناك في أن أخلاق شبابنا اليوم تذهل المرء وتصدمه، ولكني لا ألوم الشباب إطلاقا، فليس هناك جريمة أو خزي بالنسبة لسلوكهم الجنسي، فهم طبيعيون جدًا، ولكن غير الطبيعي فعلًا هؤلاء الآباء والثقاة الذين يرفضون أن يواجهوا الحقيقة التالية وهي: أن الشباب اليوم يتكامل نموه الجسماني بسرعة أكبر من ذي قبل، ولكن شبابنا لا يتكامل نضوجه

الجسماني، بل أن التكامل العقلي والنفسي يأتي متأخرًا، حتى يصبح من الصعب عليهم أن يتغلبوا على المشكلات الجنسية التي تترتب على البلوغ المبكر، ومن هنا نجد القلق الجنسي يسيطر عليهم ويدفعهم إلى الانحراف".

وقد يكون القارئ قد قرأ هذا الرأي من قبل لكاتب علمي، أو سمعه من طبيب آخر، ولكني أملك الدليل على أنه صحيح مائة في المائة، أن البرهان الذي أقدمه أعطانيه نفس الزميل صاحب الرأي، الذي قال لي: "لقد بحثت منذ فترة قصيرة حالات أربع فتيات من طالبات المدارس، وكلهن تحت مستوى السادسة عشرة، تعرضن جميعًا للحمل وكان الآباء من طلبة المدارس لا يزدن عنهن عمرًا".

واختار الزميل لي فتاة تنحدر من أسرة طيبة لا تزيد سنها على الثالثة عشر، حملت وأصبحت أمًا، وها هي قصتها، وهي أسطع برهان على أن النضج الجسماني يسبق النضج العقلي والنفسي عند شبابنا.

كانت الفتاة طالبة في إحدى المدارس العليا، وكانت تعود إلى البيت بعد يومها المدرسي فلا تجد أمها فيه، كانت الأم عادة تخرج إلى النادي أو تذهب إلى إحدى دور السينما، أو تشترك

في عمل اجتماعي من الأعمال التي تؤديها في الجمعيات الخيرية والاجتماعية متبرعة. واعتادت الفتاة أن تدعو صديقاتها إلى البيت، وكانت تدعو معهن شابًا في السادسة عشرة من عمره زميل لها في دراستها، ولم تلبث الساعات العابثة التي كانت الصديقات تقضيها في بيت الفتاة أن تطورت، ووجدت الفتاة نفسها مشتركة في استعراض مثير مع صديقها الطالب الشاب، مغامرة من النوع الخطر لم تكن تتعفف من أن تأتيها مع صديقها أمام صديقاتها.

وأصبحت الفتاة حاملًا بعد عدة مغامرات من مغامراتها المثيرة مع صديقها، ولأنها كانت في دور النضج والبلوغ الجسماني، لم يلاحظ أحد، حتى ولا والدتها، أنها حامل، ولم يلبث طفلها أن ولد ميتًا لنقص خبرتها بالطبع ولأنها لم تكن تحت رعاية طبيب أو طبيبة.

لقد وضعت الفتاة طفلها في البيت ذات أمسية، بينما أمها في الخارج كالمعتاد، وضعته في حجرتها ثم لم تلبث أن وضعته في حقيبة خشبية وأقفلتها ثم وضعتها فوق ظهر دولاب الملابس في حجرتها الخاصة.

وبعد ثلاثة أيام، اكتشفت الأم الحقيبة، عندما كانت الفتاة في الخارج مع صويحباتها في أحد المعارض الفنية، واكتشفت "الطفل الميت" وسقطت لتوها مغشيًا عليها، وعندما استعادت رشدها بعد فترة من الوقت، استدعت طبيب الأسرة (نفس الطبيب الذي روى هذه القصة)، وقد مضى في روايته قائلًا:

"ولم يكن يفيد بالطبع أن أقول للأم أنها السبب فيما حدث، لم يكن من المفيد أن أحاول إقناع الأم بأنها قد حرمت ابنتها من حقها الطبيعي في أن تجد عندها الحنان والدفء. ولقد كان سلوك هذه الفتاة تجاه الجنس، هذا السلوك الذي يتميز بأنه بارد وميكانيكي أكثر مما يميزه أي شيء آخر، كان نتيجة الخطأ من أمها. أما بالنسبة للفتاة، فقد كان اكتشاف المأساة كلها لا يزيد على أنه سوء حظ لا أكثر ولا أقل"

وقاطعت زميلي الطبيب موجهًا إليه هذا السؤال:

كيف كان في إمكان الفتاة أن تلد طفلها بلا آلام أو تعب؟!

وأجابني قائلًا:

أنت تعلم طبعًا، كطبيب، أن عظام الفتاة في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة لا تكون كاملة النضج، وبهذا تصبح الولادة بالنسبة

لها أسهل بكثير مما هي بالنسبة للنساء الناضجات الكاملات النضج.

ومن الواضح من كل هذه الحالات التي درسناها دراسة مستفيضة أن شبابنا يأخذ الارتباط في عمليات جنسية على أساس أنه نوع من المغامرة، مجرد مغامرة فقط، ليس فيه أي حب أو أي ارتباط عاطفي. إنها بالنسبة لغالبية عظمى من الشباب تجربة يريد الجميع أن يمروا بها وأن يشتركوا فيها، ومن النادر جدًا أن يربطوا هذه التجارب الجنسية بالحب والعاطفة أو الراحة أو البهجة والمتعة.

ويؤدي هذا العبث المبكر، اللا عاطفى إلى حالات من الحمل مماثلة لحالة الفتاة "سالي" التي رويت قصتها في الفصل الأول، وحالة الفتاة السالفة الذكر في هذا الفصل، وتكاد الظروف في كلتا الحالتين تتفق، بل تكاد نفس الدوافع إلى إتيان مثل هذا العبث تكون واحدة، فسالي كانت أمها تتغيب عن البيت في عملها عندما تعود سالي من المدرسة، والفتاة الثانية كانت لا تجد أمها أيضًا في البيت لسبب من الأسباب التي تدعوها إلى الغياب، وما أكثر هذه الأسباب: السينما، النوادي والارتباطات الاجتماعية والجمعيات الخيرية، وكانت كلا الفتاتين

تعوض النقص بنفس الأسلوب، وكانت كلاهما تصطحب صديقًا لها إلى البيت.

ومثل هذا يجعلنا نشعر بأسف عميق على الشاعرية والرومانسية اللتين سادتا القرن الماضي، لو أن شكسبير قد بعث اليوم ليرى شبابه المثالي الذي رمز إليه بروميو وجولييت في قصة حبهما الخالدة، لو أنه رأى شبابنا هذا العابث الذي انصرف عن كل رقة وكل شاعرية وكل رومانسية، أصيلة مثل شاعريته، أستطيع أن أتنبأ بأن أعظم شاعر عاش على وجه الأرض كان يطلق الشعر ويحرق "قراطيسه" ويبحث لنفسه عن صفة أخرى لا تتطلب رقة في معالجة الحوار أو شاعرية في وصف المشاعر التي تتلاعب بالنفس البشرية.

إن كل قصص الحب والوفاء والتضحية التي وقعت لها عيوننا وخفقت لها قلوبنا ونحن نقرأها أو نسمعها أو نشاهدها على المسرح أو الستار الفضي ونحن صغار، قد فقدت على ما يبدو إغراءها بالنسبة لشباب أيامنا هذه، إن علاقة الفتى بالفتاة تحدث بصورة ميكانيكية. فمن النادر أن تجد فتى في سن المراهقة يقول كلمة رقيقة لفتاته التي اختارها وآثر محبتها، لم تعد الكلمة المرهفة كنسمات الربيع أو حفيف النسيم هي

القاعدة التي تلمس قلب الفتاة من فتاها، إن كل مظهر من مظاهر علاقتهما يميزه طابع مادي بحت، وتنعكس آليته على كل تصرف مهما كان صغيرًا.

ويجب أن نقف هنا قليلًا لنحدد المسئولية في طغيان هذا الطابع الذي يفقد أيام الصبا بهجتها وحلاوتها ويحول ربيعها إلى أوراق صفراء يابسة تتساقط مع الخريف، إنها مسئولية خطيرة أن نتسبب في فقدان الحب الصادق أجمل عاطفة إنسانية، طابعه الخلاق وحلاوته وهدهدته للقلوب الصغيرة التي اعتادت فيما مضى أن تفتح له وتستقبله لتطوي عليه خفاياها في خفر مثالي.. إن تحويل الحب إلى طابع ميكانيكي لعلاقة تربط شابًا بفتاة، أو تربط فتاة بشاب مجرد رباط جنسي أو مادي يقوم على الانحراف، مسئولية خطيرة جدًا لا يجب السكوت عنها.

ولا شك أن هذه المسئولية تقع على رؤوس الكبار من البشر، تقع على رؤوس جيلنا نحن الذين تركنا شبابنا يتردد في الهاوية دون أن نأخذ بيده ونعينه ونهديه إلى الطريق الصحيح لما يجب أن نقوم عليه ارتباطاته وتبعاته العاطفية.

إن شيئًا مخزيًا يحدث، قد يدعي البعض أنه تطور لا غناء عنه، وقد يكونون على صواب، إلا أنه تطور مدمر، لكل المثل

وكـل مـا هـو جميـل فـي حيـاة شـبابنا فـي أولـى سـنوات تفتحـه، ومسـئولية هـذا الـذي يحـدث تقـع علـى عـاتق الآبـاء والأمهـات، والبالغين من جيلنا الذين يستطيعون أن يفعلوا شيئًا ليوجهوا شبابنا وجهـة صـالحة تتقيـه علـى بهجتـه وتفتحـه للحيـاة، وتبعـد عنـه الأخطار التي يتعرض لها من الانزلاق والسقوط في هاوية لا يعلـم إلا الله مداها.

إلى أين نسير .. بشبابنا؟

إن الحياة العصرية التي صبغت مجتمعنا بما فيها من صخب وضجيج وما فيه من آلهة قبيحة في التفكير والسلوك وميكانيكية في التصرفات والانطباعات قد أشعرت شبابنا بطغيان المادة، وجعلته لا يؤمن إلا بما يدخل في نطاقها، ومالا يتفاعل مع قواعدها الآلية الميكانيكية، فاختفت من حياتنا صورة الشاب المرح الذي يعيش في نطاق حياة أسرته، واختفت معه تلك الحياة الرتيبة التي كانت تحياها الأسر في ظل تقاليدها وعاداتها ورعايتها لأبنائها وحدبها عليهم وتوجيهها الصحيح والمستمر لهم، خاصة في سنين تفتحهم ونضجهم وإدراكهم لحقائق الحياة..

وبهذا خسرنا الروح.. الروح النقية الطاهرة التي كانت تسودنا ونحن شباب وتجعلنا بتمسك بكل المثل، ولا نسعى إلي تحطيم كل القيود، لا لسبب إلا لأننا نريد أن نثبت للعالم ذاتيتنا ووجودنا.. ونحن أيام كنا شبابًا، وآباؤنا أيام كانوا شبابًا أيضًا، كنا نجد ذاتيتنا أفعال خيرة جليلة، كأننا نتفوق في الفنون ونتذوق

الشعب الرحب والموسيقى الشجية التي تغذي الروح، ونتغزل في الربيع الساحر والقمر المطل على الروابي والذي يسير متبخترًا بين النجوم، ونهب قلوبنا النامية للحب فنغني فيه بريئًا طاهرًا كينبوع خالق لا ينضب، وكم من عمل جليل أتممناه ونحن نعيش بهذه الروح الصافية الخيرة التي تقدس المثل العليا وترعى الخلق الكريم.. ولعل سر قلق شباب أيامنا هذه وحيرته هو خسرانه لهذه الروح الخالقة التي تمده بالقدرة على مواجهة الصعاب ومغالبة التطور المادي المعاصر الذي يسود كل شيء من حولنا، لقد تفككت روابط هذه الروح بتفكك الأسرة وخروجها على تقاليدها وعاداتها، وهجرها لأبنائها وبناتها وتركهم بلا حماية وبلا أمن وبلا طمأنينة، لقد تفككت تقاليد الأسرة فإذا القلق والحيرة يستوليان على نفوس الشبان والشابات ليدفعونهم إلى الانحراف والسقوط في هاوية ذليلة.

لقد توافرت فترة طويلة على دراسة هذه النظرية، وبقيت أبحث وأنقب وأدرس عشرات الأمثلة، لأصل إلى نتيجة مباشرة لأسباب القلق الذي يعانيه شبابنا، وحيرته التي تدفعه إلى أن يأتي مثل هذه التصرفات المشينة.

ومن المؤسف حقا أنني وجدت حقائق مخجلة،لم تكن تخطر لي على بال، لقد وجدت أن شبابنا، صنيعته هذه، لا يتحلى بأبسط مبادئ الخلق الكريم، بل إن انحداره هذا يصل به إلى أعماق سحيقة في هاوية قذرة لا يمكن أن تماثلها أية هاوية أخرى للإجرام والسفالة.. لقد استطعت أن اعلم أن شبابنا قد أصبح يأتي تصرفاته الجنسية المنحرفة في مجاميع، وتطورت الحالات المفردة لتصبح مجتمعًا من الصغار الذين لا تزيد سنهم على السادسة عشرة، سن أكبرهم فتى كان أو فتاة، إنهم لا يتقيدون بشيء من نشاطهم الجنسي المنحرف.

"فتاة تركت نفسها نهبًا لفريق الكرة في مدرستها في أحد الحقول المجاورة للمدرسة بعد مباراة في الكرة، وصرحت أنها أحست بمتعة فائقة من تجربتها تلك".

"بل إن الوجه يحمر خجلًا، عندما يصطدم بهذه الحقيقة الرهيبة، وهي أن مثل هذا النشاط الجنسي المنحرف يمكن حدوثه في حفلات السبت الصباحية لأنه لا يسمح بدخولها لمن هم فوق الثالثة عشرة، ويحدث أن يحتل الفتيان والفتيات الذين في الثانية عشرة من عمرهم في المقاعد الخلفية، ثم تبدأ مظاهر نشاطهم هذا المنحرف بل إنهم لا يكتفون بما يفعلونه في دور

السينما في حفلات السبت الصباحية، فإذا بهم يخرجون إلى أقرب مكان خال، ليتركوا لأنفسهم العنان منساقين "بحماس" وراء انحرافهم هذا.. وهؤلاء الصغار يتبعون في ذلك زملاء وأصدقاء لهم فعلوا الشيء نفسه، ووجدوا عندما أرادوا التقليد خبرات جديدة في متناول أيديهم، خبرات الزملاء الأصدقاء الذين سبقوهم في نفس الطريق بل زادوا عليها في أنهم قد أصبحوا يؤدون نشاطهم الانحرافى هذا بشكل جماعي، وبجرأة أكثر.

"إن أسباب هذا الانحراف الجماعي والسلوك الشائن من هؤلاء الصغار لا تخضع أبدًا لعوامل أو نوازع شخصية. ليس دافعها شيء من حب أو عاطفة، أو حتى انفعال، أي انفعال، بل إن الفتاة تندفع إلي هذه التجربة بوازع من رغبتها وشوقها إلى التجربة، ولا يهمها أن تكون على معرفة وثيقة بصديقها، ولا يهمها أن ترتبط به بحب أو عاطفة.. وحتى لو لم تجد من تجذبه إليها، فلا ريب أنها ستجد شابًا يريد أن يخوض معها تجربة هذا السلوك الشائن".

"إن المسألة في مثل هذه الحالة تصبح تحديًا واستفزازًا. فبينما نجد تسعة عشر شابًا قد انطلقوا يأتون سلوكهم هذا

البشع، نجد الفتي الذي يحمل رقم عشرين لا يريد أن يبقى الفرد المتجمد المتأخر، الذي لا يجاري من سبقوه في نفس الطريق، إنه فتى كان أو فتاة، يرغب أن يفعل شيئًا لأنه لا يريد أن يقف ساكنًا خارج نطاق المجموعة ونطاق العمل المشين الذي تستغرق فيه".

علي أني أعلم تمام العلم أن شبابنا يتعرض لمغريات عديدة تدفعه إلى هذا السلوك الشائن والانحراف. ولاشك أن الآباء والأمهات، ونحن جميعًا، سنملك أنفاسنا من التردد عندما نطالع هذه الصور التي أوضحها هنا، أن هذه الصور في حقيقتها تحمل في طياتها تحذيرًا كبيرًا بما ينتظر شبابنا من وضع تجاه السلوك المشين. ودعونا الآن نواجهها:

إن أول الصور التي نحسها ونراها، بل نكاد نلمسها بأيدينا، هي أن شبابنا يحصلون على معلوماتهم الجنسية من أصدقائهم ورفاق طفولتهم، إنهم يسمعون الكلمات الأولى عن "الجنس" من هؤلاء الرفاق، وهم في هذا لا يفرقون بين ما يحصلون عليه من معلومات، هل هي صحيحة حقيقية، أم هي خاطئة مغرقة في الخجل؟ ومهما كان الأمر، فهم لا يتجهون إلى آبائهم أو أمهاتهم بالسؤال أبدًا، والنظرة الخاطئة التي تلازم الوالدين من أن

الحديث عن "الجنس" لا يجب أن يثار أمام صبي صغير أو ابنة في أولى سنيها، هي التي تجعل لهذه المعلومات عندما يحصل عليها الصبي أو الفتاة من زميل أو زميلة هذه الأهمية التي يعلقونها عليها، ومن ثم لا يلبث الصغار أن يكتشفوا التجارب الجنسية المثيرة.. إنهم يحاولون دائمًا أن يستغلوا هذه المعلومات التي أعطيت لهم، بل قد يكونون شهودًا على سلوك شائن يأتيه البعض من زملائهم، ويصبح من الصعب جدًا عليهم أن يقفوا بمنجاة عن التجربة أو المحاكاة.. إنهم يعتقدون عندئذ أنهم يأتون شيئًا مشينًا فلا أقل من أن يخفونه عن الآباء والأمهات والكبار بشكل عام.

ونجد الشباب عندئذ يحمون شذوذهم وانحرافهم هذا، ويحرسونه من الكبار، خوفًا من أن يصبح شيئًا مما لا يوافق عليه الآباء ويعملون دائمًا لمنعه، ولهذه الأسباب كلها مجتمعة، تصبح الاتصالات الجنسية منفصلة تمام الانفصال عن الحب، وتصبح شيئًا لا حب فيه ولا عاطفة.

ويدفعنا هذا إلى التساؤل: أين نجد الرادع الذي يحمي شبابنا من الانحدار، ومحاكاة من ينحدرون من رفاقهم؟! كيف يستطيع الوالدين أن يمنعا ابنهما أو ابنتهما من الاشتراك في

السلوك المشين الذي يرون رفاقهم يأتونه جماعات، على نحو ما وصفت من قبل؟ كيف يستطيعان أن يجعلا ابنهما أو ابنتهما بمنجاة من الإغراء الذي يصادفانه في صحبه رفاقهم؟.. لقد ثبت بالتجربة والدراسة، أن هناك فعلًا بعض الفتيان وبعض الفتيات يقولون: "من أين، وكيف جئت إلى هذا العالم؟" وفي كل حالة من الحالات التي وجدت فيها طفلًا يختلف عن الرعيل المحيط به ممن يقومون ببعض تصرفات انحرافية، لم أكن أدهش عندما أجده يحمل في ذهنه معرفة حقيقية واضحة لجواب هذا السؤال بالذات، كنت أجد والديه قد واجها مسئوليتهما، وأجاباه بما تقتضيه ظروف هذا الإدراك الوليد من صراحة ووضوح. كنت أجده على معرفة تامة ببعض الحقائق الجنسية التي زوده بها والداه منذ سنينه الأولى.

ولقد قال لي الفيلسوف الإنجليزي الكبير برتراند رسل ذات يوم، في حديث خاص بالتعليم الجنسي:

إن من الضروري جدًا أن نعلم صغارنا الحقائق الجنسية، ونعطيهم معرفة بنواميس الحياة وحقائقها، بنفس الدرجة التي نعلمهم بها الدين وندلهم على وجود الله. إن ذلك مفيد جدًا لخلق جيل متين الخلق... إن الطفل عندما يتساءل: "من أين

جئت وكيف ولدت"؟ قد لا يكون في هذا أي إحساس عاطفي أو أي شعور بالانفعال أو الإدراك لما يترتب على هذا السؤال من شرح لعملية الاتصال الجنسي كله، إن دافعه عندئذ لا يكون أكثر من الشوق إلى المعرفة والسعي إلى إرضاء الفضول، إن ذلك شيء طبيعي جداً بالنسبة له ما لم يضع الآباء في هذا السؤال مؤونة عاطفية كافية من إدراكهم وذكرياتهم عن عملية كهذه.

إن مولد الطفل يرتبط في أذهان الكبار بنوع معين من العاطفة يسبق مولده، ويسبق تكوينه الفيزيولوجي، ولكنه إذا تساءل كيف ولد فهو لا يربط تساؤله هذا إلا بمجرد الفضول والشوق إلى المعرفة، ولكنه بنفس الوقت يتطور سؤاله إلى: "كيف تكونت في بطن أمي، وكيف مكثت فيه إلى أن خرجت؟"

وعندئذ يصبح من الضروري جدًا أن يحصل على معرفة أكيدة عن حقيقة فيزيولوجية مهمة من تكون الطفل ونموه في رحم أمه. وتطور السؤال على هذا النحو قد يصيب بعض الآباء والأمهات بالخوف والرعب، وخاصة هؤلاء الذين استطاعوا بنجاح أن يرضوا فضول الطفل في المرحلة الأولى. ولكن يجب أن يتذكر الآباء الحقيقة المهمة التي أوردتها لهم فيما سبق وهي

أن الطفل لا يسوق سؤاله هذا عن دافع عاطفي أو انفعال جنسي، وإن هذا السؤال على الرغم من أنه يثير في نفوسهم عاطفة من ذكريات عاطفية وربما جنسية أيضًا، فهو عنده مجرد فضول يحتاج إلى جواب. إن العملية الجنسية كلها لا تعني بالنسبة للطفل إلا أنها مجرد إلقاء بذور في تربة خصبة، ومن الممكن أن تنتظر التفاصيل الأخرى إلى سن آخر. فالطفل في هذا السن لا تعنيه تفاصيل الحقائق الجنسية، إنها يمكن أن تنتظر إلى سن المراهقة. ولكن لا يجب أن تتأخر معرفتهم لهذه التفاصيل عن موعد تكامل النضوج في الفتى أو ابتداء الدورة الشهرية عند الفتاة.. فلو أن هذه المعرفة اضطربت في أذهانهم، أو اختلطت قبل البلوغ بما يسمعونه من رفاقهم وأصدقائهم لبدأت الأمور تسوء ولأصبح من المتوقع أن يكونوا فريسة سهلة للانحدار والسقوط من هاوية الانحراف المخيفة.

ولعل ذلك يفسر قصة سالي ولوليتا وكل ما شابههما من الفتيات اللواتي يلجأن إلى التجربة ليعرفن الحقائق أو انسقن إليها بدافع من الفضول لمعرفة ما قد يترتب عليها أو ليملأن فراغ الوقت اللواتي أحسسن به يحيطهن في بيوتهن نظرًا لانصراف الآباء والأمهات عنهن لأي سبب من الأسباب.

الزواج المبكر

في قاعة إحدى المحاكم بلندن، حكم القاضي بالطلاق بين فتى وفتاة. ثم مال على المستشار الذي يجلس إلى جواره قائلا:

"هذه هي الحالة السادسة خلال شهر واحد، ماذا حدث لهؤلاء الشبان، إن نسبة الطلاق التي ننظرها بين فتيات وفتيان لا يتجاوزن الثامنة عشرة تتزايد يومًا بعد آخر. وأعتقد أن لا بد لمشرعينا أن يصدروا قانونًا يرفع سن الزواج"

والقاضي محق، فقد ارتفعت نسبة الطلاق بين الفتيان والفتيات الذين يتزوجون في سن مبكرة بشكل لا مزيد عليه. وقد توافرت فترة على دراسة الأسباب التي تؤدي إلى الطلاق، خاصة بين شابين يرتبطان بالحب، ولكني أعتقد بعد هذه الدراسة أنه لا يجب أن نسمح بزواج في مثل هذا السن المبكر.

إنه عادة ينهار ويفشل عندما تخف جذوة الحب التي دفعت بالشاب والفتاة إلى الزواج، وعندئذ لا يجدان من إدراكهما أو تفهمهما للحياة رادعًا يساعدهما على الوصول بزواجهما إلى شاطئ النجاح.

وقد نادى البعض بالزواج المبكر كحل نافع لما قد يصيب شبابنا وفتياتنا من انحراف وسلوك مشين، ولكن مثل هذا الزواج لو تم على غير قاعدة أو غير معرفة ولا إدراك بأهداف الزواج وأهداف الحياة ذاتها من إقامة أسرة سعيدة، فهو لا شك ينتهي بالفشل.. ينتهي بين يدي قاض من هؤلاء القضاة لا يجد مفرًا من أن يحكم بالطلاق حيال سوء الفهم وعدم الإدراك الذي يلمسه في الحياة وحقائقها وأهدافها الطيبة.

وقد عنيت بأن أتقصى أسباب الفشل، كما عنيت أن أعرف وجهة نظر شاب تزوج وهو في السادسة عشرة ثم لم يمض عام واحد حتى وجد نفسه يلجأ إلى القاضي طالبًا الطلاق من زوجته، وكانت شابة لا تزيد سنها عن سنة.

لقد قال لي هذا الشاب، وكان اسمه روبين، أنه قد لجأ إلى الزواج عندما لم يجد حلًا آخر، لقد كان يحاول أن يحقق ذاتيته ويشعر بأنه رجل كامل الرجولة، يستطيع أن يؤدي التزاماته كلها تجاه فتاة، فقد كانت أمه دائمًا تعيره بأنه لا يصلح رجلًا ولا يستطيع أن يتزوج ويكون أسرة، وما أن التقى بالفتاة سيرينا وشعر تجاها بعض ميل حتى سحبها من يدها إلى أول موثق للزواج وتزوجها.

ولكن كم كان الزواج ضروريًا بالنسبة له.. كان بالوقت نفسه كابوسًا، فقد كان لا يزال طالبًا في المدرسة العليا وكان يأخذ مصروفه من أمه، ولام يكن أبدًا قادرًا على أن يوفي مطالب زوجته أو يؤنث لها البيت الذي تهفو إليه.. وكم كانت أمه طيبة من البداية. لقد ظنت أن الزواج سيخلق منه الرجل الذي تهفو إليه، ورحبت بإقامته مع زوجته في البيت، ولكنها لم تلبث أن ضاقت بهما وبتكاليف حمايتهما بعد عدة شهور من الزواج، وكانت النتيجة أن أصبح الزواج كابوسًا بالنسبة لروبين، فقد كان الشجار يحيط به، أن لم يكن مع زوجته فمع أمه، وإذا لم يكن معه فبين أمه وزوجته، وهكذا انقلب البيت إلى جحيم ولم تلبث زوجته أن عادت إلى بيت والدها ولجأت إلى القاضي ليحكم لها بالطلاق بدعوى أن زوجها ليس قادرًا على إعالتها والإنفاق عليها.

إن للزواج المبكر عند شبابنا معنى واحدا هو: "تحقيق الذاتية ومواجهة العالم بها". ولكن هذا لا يمكن أن يصلح أساسًا للزواج، أنه كما سبق أن قلت مجرد انحراف، فكما يلجأ الفتى المراهق إلى محاكاة زملائه في تصرفاتهم الانحرافية ليثبت لنفسه وللناس، أنه قادر على أن يكون شخصية مستقلة متكاملة،

فكذلك هو يتزوج ليثبت لغيره من الكبار أنه قوة، وأنه لا يقل عنهم قدرة أو خبرة بالحياة. على أن الزواج كما نعلم، يجب أن يكون استعدادًا نفسيًا رماديًا خالصًا قبل أن يكون مجرد رغبة في المحاكاة والنكايات، وإلا فمصيره دائمًا الفشل، ولهذا يفشل دائمًا الزواج المبكر بين شاب وفتاة لا استعداد عندهما.

والاتجاه العام، الذي ينادي اليوم برفع سن الزواج إلى العشرين، لا شك فيه بعض الفائدة، ففي هذه السن يكون الشاب قد نمى تجاربه، ومر بالفترة التي يتعرض فيها بكل شاب للانحراف، ويصبح أكثر قدرة على أن يفهم ارتباطات الحياة وتكون تجاربه قد أمدته بخبرة جنسية كاملة تعينه على تفهم الحياة الزوجية وما لأسسها التي تشاد عليها.

وأسوأ ما في الزواج المبكر من أخطار عندما يفشل هو ضياع الأطفال الذين قد يولدون خلال الفترة القصيرة التي يستمر فيها هذا الزواج، إن نسبة كبيرة من الأطفال الذين تضمهم الملاجئ اليوم، ليسوا هم الأولاد غير الشرعيين الذين لا يعرف لهم أحد أمًا أو أبًا، وليسوا هم اللقطاء الذين قد تلقي بهم أمهاتهم في الطريق خيفة من عار أو فضيحة، بل هم هؤلاء أمهاتهم في الطريق خيفة من عار أو فضيحة، بل هم هؤلاء الذين

أنجبهم أزواج من سن السادسة عشرة والسابعة عشرة، فعندما يقع الطلاق تشعر الأم المطلقة أن الأولاد عبء كبير عليها، وأنها لا يمكن أن تستأنف حياتها أو تبني هذه الحياة من جديد وعلى عاتقها هذا العبء، وكذلك الزوج المطلق أنه لا يستطيع أن يقيد نفسه إلي الأولاد الذي أنتجهم زواجه الفاشل وهو الآخر في سن لا تؤهله لأن يكون الأب الكامل، ولا تجد الأم وربما الأب، مفرًا من إيداع الأطفال في الملاجئ، ومهما كان من أمر فهذا أسوأ تصرف يمكن أن يلجأ إليه أب أو تنتهجه أم.

حدثني أحد لأولادنا وبناتنا، أن شيئًا ما قد أصاب عقولهم، لقد أصبح الزواج هو البدعة الجديدة هذه الأيام، طغى الزواج على "الروك آند رول" والجاز باند وغيره، أصبح تقليعة. لقد عقدت منذ شهور ما يزيد علي خمسة عشر زواجًا، الأزواج فيها جميعًا لا يتجاوزون السابعة عشرة، وليت الأمر يقف عند هذا الحد، إنني أعلم من تجاربي السابقة أن أكثر هذه الزيجات مصيرها الفشل حتمًا ومها كان الأمر فلا تلبث الزوجة بعد عام أو عامين على الأكثر أن تأتيني من جديد لتستخرج وثيقة زواج تذهب بها إلى المحكمة طالبة الطلاق.

وصمت الرجل برهة ثم قال:

قل لي يا دكتور؟ هناك سؤال يضايقني.. أريد أن أسألك إياه، أليس من الممكن أن تعطي الدولة شبابنا أي علاج يمنع انسياقهم في هذا الجنون، ألا يمكن أن نعلمهم حقائق الحياة، ونعلمهم أن الزواج شيء مقدس يجب ألا يعبثوا به على هذا النحو. لشد ما كان يؤلمني أن أرى كوارث عديدة تحدث، أن مثل هذا الزواج عندما ينهار يترك أدرانًا اجتماعية كبيرة ليس أقلها كفك الأسر وضيعة الأبناء والانحراف الشاذ الذي يصبغ حياتنا في كثير من نواحيها اليوم.

وهززت رأسي وقلت للرجل: "أنت على حق" على أنني اعترف أن مثل هذا الجواب كان فيه بعض التجني على شبابنا وفتياتنا، إن روح العصر الذي نعيش فيه مطبوعة بالقلق والحيرة تجاه أمور عديدة، وبينما نجد الآباء والأمهات يرفضون الاعتراف بهذه الحيرة، ويرفضون حق شبابهم في رعايتهم وتوجيههم التوجيه الصحيح الذي يزرع في نفوسهم الإيمان، وهم بهذا يتركونهم للضياع، فويل للشاب إذا تملكه القلق وملأته الحيرة، وويل للفتاة إذا شعرت أنها حائرة لا تجد الدعة والطمأنينة في البيت، ولا تشعر بالحماية في أحضان أمها..

إن الزواج المبكر في هذه الحال، قد يكون أخف وطأة من سواه من التصرفات المنحرفة، وهو على الرغم من أنه يفشل قد يزود الشاب بتجربة جديدة، يخرج منها اشد إصرارًا على أن يتعرف على الحياة وعلى طبيعتها ويسعى وراء حقائقها الصحيحة.. الزواج المبكر قد يصهر الفتاة ويعلمها أن الحياة ليست مجرد لعبة تشترك فيها، ويحميها من السقوط.

ولن أنسى أبدًا أن مأساة سالي التي كتبتها لي أم في رسالة أوردتها في الفصل الأول من هذا الكتاب، كانت مترتبة علي الشعور بالقلق والحيرة ومسايرة شباب العصر وإتيان فيما يأتون من تصرفات وأفعال، إن سالي كانت ممتعة عندما قالت لأمها: "أنت السبب يا أمي، لو أنني كنت أجدك في البيت عند عودتي من المدرسة، لو أنني وجدت أحدًا أتحدث إليه ويقص لي ويزودني بإرشاداته وتجاربه، لو أنني وجدتك في البيت لأنفض على صدرك عناء النهار كله لما حدث هذا.. أنت الملومة فقد اضطررت أن أملأ وقتي وان أدفع القلق والحيرة عن نفسي بمصاحبة هذا الشاب، إنه هو الآخر لم يكن يجد أحدًا ينتظره في البيت، وكان يعاني نفس المشكلة، وهكذا وقعت في الخطأ".

كيف يمكن أن ننسى هذه الصرخة؟ إنني أعترف هنا أن نوبوكوف الذي كتب قصة "لوليتا" وأعطاها الحق في أن تتحدى المجتمع الذي تعيش فيه، وجعلها تشترك مع الشبان وهي في سن صغيرة كهذه في تجارب جنسية، وتنطلق على هواها تحب هذا وتعشق ذاك وتترك آخر، ثم تطارد رجلًا ناضجًا لتحمل منه جنينًا في أحشائها، أعترف أنه كان على حق، ولعله انتزع هذه التجربة الأدبية من المجتمع المحيط به.

إن هذه التصرفات المنحرفة لشبابنا أساسها: القلق والحيرة. والآباء والأمهات يحملون جانبًا كبيرًا من اللوم لأنهم يتركون أبناءهم وبناتهم نهبًا لهذا القلق وتلك الحيرة. إن الشباب في حاجة إلى المعرفة الكاملة بحقائق الحياة وانطباعاتها، ولكن الآباء والأمهات يمنعهم الخجل فلا يزودون الأبناء بهذه الحقائق.

ومن الضروري جدًا أن يتلفت الشاب اليافع حوله، فيجد بيتًا يملأه الحب والتفاهم والانسجام.. وهناك رأي يقول: "لا يجب أن نعلم الفتى كيف يركب دراجته، إن ذلك وحده لا يكفي، بل يجب أيضًا أن نلقنه مبادئ المرور وعلامات الطريق ونزوده بالنصائح والإرشادات".

وملايين الناس يعرفون هذا المثل ويقيدونه، وفي العادة نجد الطفل يتبع نفس أسلوب والديه حيال تصرفاته الخارجية في المجتمع، وخير له كما قلت ألف مرة أن يعيش في بيت بني على الحب والتفاهم والثقة.. على أن بعض الأسر لا تزال تدور في فلك متأخر، وكم من أشياء يحرم الحديث فيها على الكبار أمام الأطفال وكم من محرمات لا يسمح للطفل بمناقشاتها أو الحديث فيها، عندما يعبر عن فضوله تجاه أسلوب والديه في الحياة، أو بمعنى أصح، عندما يتساءل عن سلوكهما حيال بعضهما في مخدعهما، تكثر الأم وهي تزجره وتأمره ألا يعود إلى مثل هذا السؤال الوقح مرة أخرى.. ولو كان الأمر لي لشددت أذن هذه الأم وصببت في أذنها النصيحة بأن من الخير لها أن تشرح لولدها ما يسود حياة الأسرة من حب..

وفي الوقت نفسه يجب أن تعلم جيدًا، أن بنيان المظهر السعيد للحب الذي يسود البيت، وتركيزه في ذهن الطفل، لا يأتي عن طريق إطلاعه على الحقائق بوضوح، كأن يترك الوالدين خجلهما مثلًا ويمارسان أمامه صلتهما الجنسية أو حتى تركه يسمعهما وهما يمارسان هذه الصلة..

إن الأب الحصيف يستطيع أن يعطي ولده كل هذه الحقائق دون أن يضعها موضع التجربة أمامه.

إن الأضرار التي تترتب على هذه الرؤية، أو هذا السماع، تخلق ألوانًا من الاضطراب العاطفي عند الطفل عندما ينضج، وقد وقفت كطبيب متخصص في شئون الزواج ومشاكله على عدد كبير من هذه المشاكل.. لقد وجدت أن سر هذا التصرف في العادة، سببه هؤلاء الآباء والأمهات وقد شاهدوا وهم أطفال مثل هذه الصلات بين آبائهم، أو شعروا بها وسمعوا آبائهم وما يتبادلونه من أصوات وعبارات أثناءها.

إن الأطفال لا يفهمون أن هذه الصلة التي يمارسها الآباء والأمهات تقوم على الحب المتبادل بينهما، والعاطفة الأكيدة التي تربط بينهما وتجمعهما كربي أسرة، وهم لهذا يأخذونها على أنها اعتداء من الأب على الأم، وهذا يولد عندهم بعض المضمون الخاطئ عنها، بل أن ما يترسب في عقلهم الواعي عندئذ يدفعهم إلى أن يختزنوا هذا المضمون الخاطئ ليحققوه عندما تسنح لهم أول فرصة، ومن الثابت أن هذا العقل الباطني عند الطفل، قد يبدأ يعي في سن مبكرة مثل هذه الأمور الجنسية بين الوالدين، بل ثبت أن الطفل في سن العام والنصف يبدأ عقله

الباطني في اختزان هذه الانفعالات تجاه الجنس؟ ولعل من الأسباب الرئيسية التي تتسبب في هذه الأخطار هو ضيق البيوت وازدحامها.

ويجب على الآباء والأمهات أن يضعوا في أذهانهم دائمًا أن الإدراك الجنسي عند أطفالهم يبدأ في سن مبكرة عادة، في سن الثانية أو الثالثة على الأكثر، وتكوين أسلوب معين عند الأطفال تجاه الجنس مسئولية ضخمة إذا استطاع الآباء تحملها لاستطاعوا أن يوفروا الكثير من متاعب شباب اليوم، ولاستطاعوا أن يبعدوا بهم عن طريق تلك الانحرافات الشاذة.

ولكنني أحذر الآباء والأمهات بألا يغالوا في هذا حتى يحولوا البيت إلي جزيرة للعراة حتى يعرف الطفل كل شيء حتى ولو لم يسأل.. وقد يكون الطفل الذي لم يبلغ العاشرة من عمره بعد في حاجة إلى أن يرى والديه يخلعان الثياب أمامه، إلا أنه من أشد الخطورة أن يسمح الأب أو الأم لولده بعد هذا السن أن يراه أو يرى أمه عارية مرات كثيرة.

والثقة بين الطفل ووالديه عندئذ يجب أن تكون متوفرة، ثقة تجعل من المؤكد أن الطفل سيحمل مشكلته إلى أبيه وأمه عندما تقوم عنده مشكلة فعندما تفقد هذه الثقة، يأتي دورنا نحن الأطباء، ولكن بعد فوات الفرصة إذ يكون قد تصرف تصرفًا منحرفًا.

والآن .. تعالوا نضع دستوراً لشبابنا

قد يكون دفاعي عن الرومانسية ثغرة ينفذ إليها بعض الداعين إلى التطور بشبابنا تطورًا عمليًا يلاءم الحياة الصاعدة التي نحياها.. على أنني أعيب على شبابنا إغراقه في الآلية والمادية وابتعاده عن الرومانسية الأصيلة في نفوس البشر منذ بداية الحياة. إنني أرى في العاشق الوفي "روميو" كما وصفه شكسبير شهمًا يتحلى بالوفاء والإخلاص، وكان يتفجر شبابًا وحيوية ويفيض شاعرية وتقديرًا للروابط الوثيقة في هذا المجتمع، ودفعه هذا إلى أن يكافح الظلم وأن يقف في وجه كل الاضطهاد، وكان شجاعًا ناضجًا تسلق الأسوار ليصل إلى حبيبته الغالية ليكون قريبًا منها، ثم مالت وفاء على قبرها بعد أن ظن أنها قد ماتت بالسم الذي تجرعته.

على أنني لا أريد أن أطيل الحديث عن روميو بطل شكسبير الخالد، ولكني أريد صادقًا أن أهزأ من الانسياق وراء المادة، وممارسة الحياة بآلية وميكانيكية عند شبابنا.. فمنذ ابتعد شبابنا عن الرومانسية، ومنذ أغرق هذا الإغراق في أخذ الحياة بعجلة

وبلا وعي أو إحساس، مُنذ اختفت الكلمة الحلوة التي كانت تسبق العاشق إلى أذن معشوقته، ومنذ اختفت أبيات الشعر الغزلي يترنم بها العاشق وخدوده متوردة من الخجل، مُنذ تخلت الفتاة عن خجلها البكر الذي كان يعطيها صورة أثيرة في قلب كل العشاق وكل الشعراء، والحياة خالية، وحياة الشباب قد تملأها المآسي وتهددها تلك التصرفات الآلية التي لا إدراك فيها ولا وعي.

إنني لا أجد في صفات جيمس دين أو ألفيس برسلي أو ما شابههما من الشبان المتهورين الذين يتخذهم شبابنا قدوة لهم، وقدوة يحتذون بها، شيئًا يقنعني بأنني قد أترك ابني يحاكي أحدهم أو يسير على منوالهم، إنني أفضل له ألف مرة ومرة أن يغرق في الخيال، ويحاكي بطل شكسبير الأثير روميو، وأن يظل يعيش في نطاق ذلك الإسار الذي يسمونه الرومانسية على أن يأتي تصرفًا أرعن كهذا التصرف.. ومن واجبي وواجب كل أب وواجب كل أم أن تزود شبابنا بما يحميهم من الانحراف والتصرف الشائن.

إن سلوك الطفل أو الصبي، أو الشاب الصغير الذي لم يكمل نضجه بعد، تصرفه أو سلوكه في المجتمع الخارجي يعكس صورة لما يسود بيته، ويعطي مثلًا عن البيئة التي تربى وترعرع فيها.

وظروف الحياة العصرية التي نحياها اليوم تفرض على بعض الآباء أن يبتعدوا عن بيوتهم ربما طيلة النهار، بل أن هذه الحياة ذاتها وما تتطلبه من ضروريات لارتفاع تكاليف المعيشة قد تفرض على الأم أن تعمل هي الأخرى، فترة من نهار أو خلال النهار كله. ويجد الابن، شابًا كان أو فتاة، البيت خاليًا عندما يعود من المدرسة، وهو لا شك، خاصة في السن المبكرة بين العاشرة والسادسة عشرة، في حاجة إلى بعض الرعاية، أنه يعود بعد يومه المدرسي يحمل متاعب، يريد أن ينفضها عن صدره، وكم يكون من الشاق عليه ألا يجد أحدًا ينصت له. إنه يحاول أن يجد الصحبة في الخارج، ويحاول أن يملأ فراغ بيته بمن يدعوه من زملاء، ومن هنا تبدأ مرحلة الانهيار.

إن النتيجة وخيمة.. وأقرب مثل إلى الذهن هو مثل "سالي" التي اتخذتها مثلًا لفتياتنا اللواتي في سن الثالثة عشرة، تلك الفتاة التي حملت من زميل لها وولدت طفلًا ميتًا وضعته في

حقيبة، ألقت بها فوق دولاب ملابسها في إهمال ثم انطلقت تزور معرضًا من المعارض المدرسية مع زميلاتها. ومثل هذه النتيجة توقظ الأم على الكارثة، ولكن بعد فوات الوقت، وقد رأينا أن أم سالي قد اضطرت أن تتخلى عن وظيفتها، وأن تتخلى عن بيتها الذي كانت تقطنه لتقطن حيًا آخر، حتى زوجها اضطر أن يغير وظيفته وينتقل إلى مدينة أخرى، ويزعم للناس أن "سالي" قد أصيبت بالتدرن الرئوي لكي يتيسر له أبعادها إلى بيت جدتها، حتى تضع مولدها الذي كان نتيجة حتمية للمأساة التي انساقت إليها، بل اضطر أيضًا أنه قد شرع يتبنى طفلًا حتى يأمن ألسنة الناس عندما يحضر الطفل بعد أن تلده "سالي".

وقد يكون من الصعب جدًا على المرأة الموظفة، أن تتخلى عن وظيفتها، كما فعلت أم "سالي"، وكانت هذه الوظيفة تدر دخلًا يحقق للعائلة بعض الكماليات، ولكن هناك أمهات يهملن بيوتهن من أجل أشياء ليست ذات قيمة، كأن تقضي نهارها في السينما، أو تذهب إلى النادي لتقضي سحابة يومها في رفقة أمهات مثلها أهملن بيوتهن، أو تحاول أن تشغل نفسها بالاشتراك في جمعيات خيرية، وبيتها أحوج إلى نشاطها واهتمامها من أي شيء آخر.

إن انصراف الأم بهذا الشكل عن رعاية أبنائها يجعلهم يفتقدون الكثير، خاصة الشباب منهم، ويدفع بالقلق إلى نفوسهم ويشعرهم بالضعف حيال المجتمع الخارجي ويجعلهم يتخبطون في مشاكلهم عندما لا يجدون من يسدي إليهم النصح أو يبصرهم بالأخطار الكامنة وراء تصرف مشين يأتونه.

وافتقار الطفل للاطمئنان والرعاية والحنان في البيت، يجعله عرضه لمحاكاة رفاقه والاقتداء بهم في تصرفاتهم الخاطئة وانحرافهم المشين، فإذا به يشترك معهم في إتيان الأمور المشينة، كأن يمارس مثلهم النشاط الجنسي الذي ينساقون إليه كلون من ألوان التجربة فقط.

إن الطفل في هذه السن المبكرة يحتاج إلى نوع من التأكيد بأهميته، يحتاج إلى الشعور بأنه شيء ما، بأنه ذات منفصلة لها خصائصها التي يقدرها الكبار ويقيمون لها وزنًا، وعندما يفتقد هذا التقدير ينحرف في سلوكه وتصرفه. وواجب الآباء الأول أن يتعاونوا لكي يعطوا الشاب الصغير بيته الكامل، وأن يحيطوه بالرعاية والرأفة والفهم والثقة.

متى تبدأ مرحلة الرعاية؟

يجب أن يعرف كل الآباء، أن لا مجال للخجل في مواجهة الحقائق التي تحيط بالطفل الذي يشرع في التكامل، أن يرى الكثير من حوله يحتاج إلى تفسير، يرى بعض الأمور التي تثير فيه الفضول، وتدفعه إلى التساؤل والحيرة، وليس من الواجب أن يتهاوون الآباء والأمهات في إشباع هذا الفضول عند الطفل، وتزويده بما تقضي حيرته وتساؤله، وأهم ما يشكل هذا الفضول هو الوعي الجنسي عنده..

إن الطفل يبدأ يعي التصرفات الجنسية لوالديه في سن الثانية أو الثالثة، ويختزن عقله الباطن كل هذا أن يصله من تصرفات، ومن ثم يبدأ في التساؤل: "من أين وكيف ولدت؟" وهو عندئذ في حاجة إلي جواب شاف، في حاجة إلى أن تخبره الأم ببعض الحقيقة حتى تبعد عنه شبح الفضول والحيرة.

وعلى الأم أو الأب، أو من يتولى شرح الحقائق الأولية للطفل ألا يسرف في الشرح، فعادة يجب أن يحمل إدراك الطفل الكثير من المعلومات التي قد لا تفيده ولكنها في الوقت نفسه تضره إذ تنحرف به.. لا يجب أن يتلقى الطفل شرحًا تفصيليًا لهذه الحقائق، أو وصفًا كاملًا للعملية الجنسية وما

يترتب عليها من حمل الأم ونمو الطفل في رحمها ثم ولادته، ويجب أن يتعلم أن العملية الجنسية ذاتها إن هي إلا مظهرًا من مظاهر الحب والعاطفة والإيثار التي تربط أمه بأبيه، أن ذلك يجعله يدرك أن تلك الصلات يجب أن لا تكون مبتذلة ولا محل انحراف، حتى ولو أنه رأى البعض من رفاقه ينحرفون. إن ذلك يجعله يحترم هذه الصلات وينزلها منزلة كبيرة من نفسه ولا ينحدر إليها ولا ينحرف.. ذلك خير ألف مرة من تركه عرضة للحصول على المعلومات الجنسية التي ترضي فضوله من رفاقه مشوهة منحرفة.

ولكن يجب على الآباء والأمهات أن يتذكروا جيدًا، أنهم بعد سن العاشرة، لا يجب بحال أن يتركوا للشاب أو الفتاة مجال رؤيتهم عاريين، بل يجب ألا يمارسوا عمليتهم الجنسية على مسمع أو مرأى منهم، فهم بعد لا يستطيعون تقدير أساس هذه الصلة من حب وعاطفة، وأن يستخفوا بصلاتهم هذه ما أمكن.

ومن الخطأ جدًا أن يعامل الطفل بالخشونة والقسوة، أن أحاسيسه الناضجة المتفتحة ستنقل للعالم الخارجي، وهو عندئذ يحتاج تغطية لهذا الانفعال وحنان أمه كفيل بأن يهدئ من روعة

ويجعله يخلد إلى الدعة ويكون عاديًا في كل ما يقوله وكل ما يفعله.

وإذا جاوز الطفل العاشرة فيجب أن لا يترك وحده في فراغ، يجب أن يشعر دائمًا أن أمه معه وإلي جواره، حتى يطمئن لها ويسر إليها مشاكله أولًا بأول حتى تحلها له، وحتى لا تستفحل إلى الدرجة التي يصبح معها أي علاج لا يجدي.

إن عشرات الحالات التي تعرضت لها بالتفصيل، تكمن وراءها نقص المعرفة الجنسية الصحيحة، ونقص المعلومات التي تحمي الطفل من الانحراف. وهذا الأمر يحتاج إلى عناية فائقة من الآباء والأمهات حتى يكفلوا للطفل الحماية الواجبة في المجتمع الخارجي الذي يُواجهه.

توجيه السلوك الخارجي للطفل

إن الطفل، خاصة في مرحلة نضجه الأولى، بين العاشرة والسادسة عشرة يحتاج إشرافًا كاملًا وتوجيهًا صحيحًا في المجتمع الخارجي، في المدرسة وفي الطريق وعلاقاته بزملائه وزميلاته ورفاقه من الأطفال في المدرسة ويحتاج إلى إشراف أكمل وتنظيم أقوى وأدق.

فعندما يعود الطفل إلى البيت، ليحمل أقصوصة معينة عن زميل أو زميلة فالحاجة ملحة إلى أن تنصت له الأم، وتسمع الأقصوصة وتتولى بحكمة إرشاده وتوجيهه في إدراك وفطنة، وقد يكون متأثرًا بروح زميله أو زميلته، وقد يكون في هذا التصرف من الزميل أو الزميلة ما يشين، أو ما يتنافى مع التوجيه الصحيح للطفل، وواجب الأم أو الأب هو معالجة هذا التأثر بنعومة ورقة، حتى لا يزداد تأثرًا وبالتالي، حتى لا يجد الرأي المعارض متميزًا فينحاز إلى صديقه ويناصره، ويحاكيه فيما يفعله، وعندئذ يبدأ الانحراف. إن الطفل في هذه السن يبدأ مرحلة جديدة من حياته أنه يتطور ويصبح صبيًا يافعًا أو صبية متفتحة، وكلاهما في حاجة إلى إقناع عما يصادف من مشاكل أو ما يفرض عليه من آراء. نحن لا نستطيع أن نقول: لا. بلا تبرير أو بلا فهم بل يجب أن نوضح وجه الخطأ الذي يدفعنا إلى أن نقول لا.

والصبي، ذلك الشاب الصغير، يضج أحيانًا بنظام حياته وتضايقه كثرة واجباته المنزلية، وهو عندئذ في حاجة إلى أن يفهم أنه لا يفعل شيئًا بلا فائدة، يجب أن يفهم مثلًا ما هي فائدة دروس الجغرافيا لشاب صغير مثله.. قد يكون متمردًا وقد يكون ضجرًا، إلا أن بعض الحقائق الصغيرة المبسطة عن العالم الذي

يحيط به تجعله يشعر بحماس جديد.

والاتجاه الحديث اليوم في أن يشترك الآباء وتشترك الأمهات في لجان الإشراف على أبنائهم في مدارسهم، اتجاه تربوي مفيد جدًا، ففي خلال هذه المجالس تستطيع الأم أن تعرف اتجاه ابنها العام، وتستطيع أن تدرس تصرفاته وما ينعكس عليه في مجتمعه المدرسي، ولا شك أنها ستعلم تمامًا ما إذا كان يعاني شيئًا من النقص في استعداده أو ذكائه، وبالتالي تستطيع أن تفعل ما يوكل إليها من مشرفيه ومدرسيه لرفعه إلى المستوى اللائق به. إنها تستطيع أن تعرف تمامًا كيف تفيد ولدها وكيف تساعده، وتستطيع أن ترى علامة الخطر إذ بدر منه تصرف غير صحيح قد ينبئ عن الانحراف أو سوء السلوك.

لا شك أن مثل هذه المجالس تفيد جدًا، حتى تستطيع الأم أو يستطيع الأب أن يكونا صورة صادقة لحياة ولدهما في المدرسة، ويجب أن لا تتظاهر الأم بأنها مشغولة، لا يمكنها امتلاء وقتها بالواجبات من أن تذهب فتحضر مجالس الآباء والأمهات هذه.. إن الخطر الكبير، خطر انحراف السلوك ويسوء التصرف يكمن وراء عدم معرفة الأم لحالة ابنها أو ابنتها في مجتمعه الصغير المدرسة.

إن أحدًا لا يعرف مدى ما يترتب من نتائج على زلة شاب أو فتاة، خاصة إذا كانت هذه الزلة بداية حياته أو حياتها.. إن التأثير النفسي الذي يتبع مثل هذا الانحراف قد يؤدي بالفتى أو الفتاة إلى الاستهتار ويجعله أو يجعلها عضوًا فاسدًا في مجتمعنا فإذا كان من الممكن أن يتدارك الآباء والأمهات هذا الانحراف ولا يتركون أولادهم وبناتهم عرضه لمثل هذا الانحدار، فلا شك أن هذا أول ما يجب عليهم أن يحرصوا عليه.

لا تتركوا بناتكم وأولادكم يملون سيطرتهم

عندما يبدأ الصبي أو الصبية مرحلة نموه الأولى يبدأ محاولته للتشبه بالكبار ومحاكاتهم، أنه يريد أن يثبت للعالم الخارجي أنه قد نضج، وأنه ليس أقل من الكبار فيما يفعلونه، إن الصبي يبدأ يطالب ببنطلون طويل ويتمنى لو أن شاربه قد نبت، وشعيرات ذقنه قد نبتت، بل أن بعض الصبيان قد يصرون على أن يشتري لهم آباءهم "ماكينات حلاقة" استعدادًا لحلق ذقونهم وتربية شواربهم كما يفعل الكبار.

وقد تتعدى محاكاة الكبار هذه المظاهر البسيطة، قد يريد الصبي أن يقلد أباه فيما يفعله، خاصة إذا كان هذا الأب لا يهمه كثيرًا أو قليلًا أن يراه ولده يمارس مع زوجه صلاته الجنسية،

وعندئذ يتوجه الصبي نحو الانحراف في سلوكه، وتكون ضحية انحرافه هذا فتاة في مثل سنه أو أصغر منه.

والفتاة هي الأخرى في أولى مراحل نموها، تسعى دائمًا إلى تحقيق ذاتيتها واثبات وجودها، أنها تريد أن تعرض نفسها على العالم الخارجي كله.. تمامًا كما فعلت سالي فتاتنا.

ولا مجال على الإطلاق لتدليل الفتاة في هذه السن، إن نتائج هذا التدليل قد تكون خطرة للغاية، إن تحقيق رغباتها التي تفرضها تجعل من العسير أن يتراجع الوالدان بعدئذ عن تحقيق رغباتها التي ستستمر، وإذا كنتم لا تصدقونني فاقرءوا معي هذه القصة، ولا أظنكم مبدئيًا تجهلونها، فقد نشرتها أكثر الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية: هي قصة بين بيجي وليامز وكلبها دان.

لقد نشأت بيجي بين والدين يدللانها، ويجيبان لها كل ما تطلبه، طلبت وهي لم تزل في الثامنة دراجة تذهب بها إلى المدرسة، واضطر الوالد أن يشتري لها دراجة رغم صغر سنها، وعندما أتمت العاشرة من عمرها أصرت على أن تكون هدية عيد ميلادها العاشر كلبًا يشتريه لها الوالدين، ونزل الوالدان عند رغبتها واشتريا لها كلبًا صغيرًا، وصبت بيجي على كلبها كل ألوان

التدليل التي عرفتها وهي بعد طفلة صغيرة، كانت تأخذه معها إلى فراشها وهي نائمة، وكانت تأخذه معها إلى المدرسة وتتركه على باب غرفة صفها، وكانت تضعه أمامها على الدراجة عندما تذهب إلى المدرسة أو تعود منها إلى البيت، وكانت تفعل أكثر من هذا، كانت لا تستحم أو تجلس على المائدة إلا إذا كان معها "دان". وأصبح "دان" هو حياة الصغيرة بيجي كلها، أصبح المحور الذي يدور حوله عالمها كله.

وبدأ الوالدان ينزعجان من تلك الأهمية المتزايدة للكلب في حياه ابنتهما، وبدءا يبذلان محاولات عدة لإبعاد "دان" عنها، كانا يبعدانه عنها عندما تنام، فإذا هي تصحو لتبحث عنه وتفكه من أساره الذي أحاطوه به في الحديقة، وكان والدها يطلب منها ألا تأخذه معها إلى المدرسة، فتثور وتغضب وقد لا تذهب إلى المدرسة، وكان الوالد يطرده من على المائدة، عندما تجلس الأسرة لتتناول طعام الغذاء أو العشاء، فإذا بيجي تغادر المائدة وترفض أن تعود إليها إلا إذا عاد معها "دان". ولم يجد الوالد بدا من استعمال حقه الطبيعي كوالد، لحماية ابنته من هذا التعلق الشاذ بالكلب. ولا أخالكم لا تعرفون نهاية القصة، لقد أخذت بيجي كلبها وهربت إلى ضواحي لندن حيث تقيم الأسرة في

المدينة ذاتها، وهامت معه على غير هدى إلى أن أمسك بها رجال البوليس إثر البلاغ الذي قدمه لهم والدها، وعندما سئلت عن سر هربها من البيت، بكت وصاحت تقول:

إنهم يريدون إبعاد "دان" عني، أنا لا أطيق الحياة بعيدًا عنه، إنه كل شيء في حياتي، إذا أخذوه مني فلا معني للحياة.

وقد يرى البعض أن من حق بيجي أن تتعلق بكلبها، ولكن لا شك أن تصرفها هذا يحمل قدرًا كبيرًا من الشذوذ، أن الصلة بينها وبين كلبها أمر شاذ والخطأ الكبير الذي ارتكبه والداها هو الانصياع لكل ما تريده منذ البداية لقد أملت بيجي سيطرتها، وبدأت تتصرف على هواها، والنتيجة هي أنها عندما قال لها ضابط البوليس أنهم سيستدعون أهلها ليأخذونها إلي البيت بكت وهددت بالانتحار إذا أعادوها، قالت بيجي:

إنهم يكرهون "دان" ويريدون أبعاده عني، لهذا لن أعود ولو أجبرت على العودة فسوف أقتل نفسي، أو أهرب مرة أخرى من البيت مع دان.

إلى هذا الحد وصلت كراهية بيجي للبيت من أجل دان، وأغلب الظن أن والديها قد انصاعا لرغبتها، ونفذا لها ما تطلبه، وتركا لها "دان" يتبعها في البيت كما تهوى.

إن تدليل الابنة أو الابن في هذه السن، يؤديان إلى نتيجة واحدة هي الشذوذ في التصرف والشذوذ في الخلق، إنه يستتبع طلباته دائمًا بطلبات جديدة، ويصر على أن ينفذها والداه مهما كانت العاقبة، والابنة أيضًا لا تقف طلباتها عند مجرد "سوتيان" كذا الذي ترتديه الأم، أو حذاء بكعب عال، إنها تبدأ تحس بنموها ونضجها كأنثى، فلا أقل من أن تضع المساحيق على وجهها، وتذهب إلى "الكوافير" وتخرج مع زملاء لها من الفتيان للتنزه أو تذهب إلى السينما.

لا تتركوهم لأفلام بلا قيم

لا جدال في أن السينما تلعب دورًا كبيرًا جدًا في حياة المجتمع اليوم، مجتمع الكبار والصغار على السواء، ولكن أثرها في نفوس الكبار لا يختلف كثيرًا جدًا عن الأثر التي تتركه في أذهان الصبية والصبايا ونفوسهم، ومن أجل هذا لجأ المشرعون إلى سن قانون خاص بالرقابة علي الأفلام، ثم أجازوا مشاهدة الصغار ومن هم دون السادسة عشرة، لبعض الأفلام ومنعوا أكثر

ما تقدمه السينما عنهم.. على أن نظرة واحدة إلى شبابنا مثلًا يحتذى، نظرة شاملة إلى جرائم الأحداث خاصة تلك الدامية الرهيبة منها، مجرد النظرة تكفي للتدليل على ما تتركه السينما من أثر في نفوس الجيل الصاعد.. إن هذا الجيل يتشبه بأبطال الأفلام التي يراها على الشاشة ويقتفي أثرهم في الحياة العامة، وهو يعلق على السينما أهمية كبرى كوسيلته الأولى للتسلية، بل أن دور السينما كثيرًا ما تكون مسرحًا لتصرفات شاذة من الشبان والفتيات.

وكما سبق أن قلت، أن الحفلات النهارية يوم السبت، تلك الحفلات التي تقيمها دور السينما خاصة للصبيان والفتيات ولا تسمح فيها للكبار بالدخول، تلك الحفلات التي ثبت أن كثيرًا من التصرفات الشاذة يأتيها الصبية والفتيات أثناء عرض الفيلم.. والصبي في هذه المرحلة الحاسمة من نموه، سن الحادية عشرة أو الثانية عشرة، يتعلق بالأوهام، إنه يختار بطلًا مثاليًا من بين نجوم الشاشة، ومن ثم ينطلق يحاكيه ويقلده، يبدو مثله في المجتمع ويتزيَّ بزيه، ويأتي الكثير من التصرفات التي رآه على الشاشة يأتي بها، ولعل هذا يفسر تعلق الكثيرين من شبابنا بمثل جيمس دين.. بل أن هذا الجيل وجد في طبيعة جيمس دين

المضطربة الحائرة أكثر من مثل يحتذى، بل أن الأفلام التي ظهر فيها جيمس وكانت كلها تعبر عن القلق والحيرة، وهما طابع جيل شبابنا اليوم، استطاعت أن تضيف لمسة ساحرة إلى شخصية هذا الممثل وتجعله قدوة لشبان كثيرين، ليس في وطنه أمريكا فقط، ولكن في كل بلاد العالم، وبينها بالطبع إنجلترا.

يجب علي الآباء أن لا ينقادوا لرغبة الصبي أو الصبية الموجودة دائمًا في ارتياد أحد دور السينما، وليذكروا ما قالته "سالي" لأمها: "كلهم يذهبون إلى كل الأفلام، مضى الوقت الذي ينتظر فيه الشبان والشابات فيلمًا يقال عنه أنه جيد ليروه كما كان يحدث في أيام صباك يا أمي.

لا بُد أن تعطيني مزيدًا من المال لأذهب إلى السينما وأشاهد كل الأفلام".

وهذا هو ما يحدث بالنسبة للصبيان والفتيات، أنهم يحضرون كل الأفلام بلا استثناء، والسينما تستولي عليهم استيلاء عجيبًا، ولقد لاحظت خلال دراستي أن تصرفات الصبيان والفتيات المنحرفة تلعب السينما فيها دورًا كبيرًا جدًا. لهذا يجب على الوالدين أن يشرفا إشرافًا تامًا على أولادهم، وينظما مشاهدتهم للأفلام السينمائية المفيدة التربوية.

وفي السينما ينبع خطر انحراف الشباب إلى الجريمة، خاصة جرائم الاغتصاب والسرقات التي تصاحبها أعمال العنف، أن السينما قد دأبت على أن تمجد المجرمين العتاة مثل آل كابوني ودلنجر، وأرسين لوبين، واعتادت أن تروي قصصًا والمبارات النارية بين البطل الأسطوري، وهذا يخلق في نفوس الصبيان في سن تفتحهم نزوعًا إلى المحاكاة والتقليد، يخلق فيهم نوعًا من الإعجاب بالمجرمين العتاة، واتخاذهم نموذجًا يحتذونه، وما أكثر الشبان الذين ارتكبوا الجرائم الدامية لأنهم تصوروا أنفسهم أبطالًا كهؤلاء الذين يرونهم على الشاشة.

إن أثر أفلام الجريمة، وأفلام الجنس واضح جدًا اليوم في اتجاهات شبابنا، خاصة تلك الأفلام التي تعرض في التليفزيون، والآباء لا يهتمون إطلاقًا إن كانت الأفلام التي تعرضها شاشة التليفزيون يليق بأولادهم أن يشاهدوها أم لا؟

ولقد أجرى أحد المعاهد الذي يتولى تربية الشبان والفتيات في السن الصغيرة دراسة وافية، خرج منها بأن البطل، أيًا كان لونه، يعيش في مخيلة كل شاب وكل فتاة، حتى ولو كان مجرمًا مثل دلنجر، بل أنه يشتد رسوخًا في الأذهان الصغيرة، ويزيد الإعجاب والتعلق به كلما بدا في الفيلم أكثر عنفًا وأكثر سطوة،

بل يصبح مثلًا أعلى على الرغم من الجو الخيالي الذي يحيط به من النهاية المفجعة التي تفرضها روحية الأفلام على كل فيلم من هذه الأفلام.

وأفضل الوسائل التي يجب أن يتبعها الآباء، وأن تنفذها الأمهات هي: تيسير ذهاب الأولاد إلى السينما لمشاهدة أفلام ثقافية تربوية، وأن النادي أو النشاط الاجتماعي في المدرسة يمكن أن يحقق هذا الهدف. وبعض النوادي تقيم اليوم حفلات سينمائية مرتين أو ثلاث في الأسبوع، وبالطبع يقدم في هذه الحفلات أفلامًا ثقافية أو تربوية أو قصصية ذات مغزى تدعو للخير والحب والنمو الاجتماعي.

دعوهم يفيدون من رغبتهم في التعلم

هناك رغبة أكيدة في المعرفة، وفضول كبير إلى التأكد من أشياء بعينها، تصاحب بدء تفتح الشاب أو الفتاه، وتفهمه أو تفهمها للحياة، أن ذهنه يمتلأ بالأسئلة المبينة عما يجري وما يراه حوله من شئون، وكما تولد العلاقات الاجتماعية في البيت بين الأم والأب فضول الصبي، وتجعله يتساءل عن الأسس التي تنظم هذه العلاقة، تتولد من هذه الرغبة في المعرفة عشرات من الأسئلة الأخرى، كيف ولد وكيف جاء إلى هذا العالم، وما الفرق

بين الفتاه والصبي، وواجب الأب وواجب الأم أن يعطونه إجابة كاملة صريحة عن كل سؤال يسأله.

إن من حق الصبي أو الفتاة، كما بينت من قبل أن يحصل على بعض المعلومات المبسطة عن العلاقات التي تنظم حياة والديه، ومن حقه أيضًا أن يعرف كيف ولد، وأن يعرف أكثر أن مولده هذا جاء نتيجة ارتباط والديه بالحب والحنان والعطف، ذلك الحب الكامل الذي أهلهما إلى أن يرتبطا جنسيًا كان مولده نتيجة مباشرة له. ومن حقه أيضًا، الآن يفهم لماذا يتزوج رجل وامرأة، وما هي الحكمة التي تدفعهما إلى أن يرتبطا ويعيشا حياة واحدة. من حقه أن نقول له أن هذا هو قانون الحياة، وهذا هو القاعدة لاستمرار الجنس البشري كله.

ومن المُمكن جدًا الإفادة بذلك النوع من الفضول الذي ينتاب الصبي أو الفتاة في هذه السن. إذ استعدادهما لتلقي المعرفة يمكن أن يستغل على أوجه كثيرة مفيدة، من الممكن دفعه إلى القراءة وتنمية حصيلته من المعلومات، ومن الممكن توجيهه توجيهًا صحيحًا تجاه النضوج العملي والفكري، من الممكن أن يفسر له الأب لماذا يذهب إلى المدرسة ولماذا يتعلم ويحصل الدروس، ويشرح له الدور الذي ينتظره كرجل

عندما يكبر، وواجبه حيال مجتمعه في أن يكون أسرة سعيدة تساهم في إيجاد مجتمع سعيد.

إن هذه السن هي الأساس الذي يمكن أن يرتكن فيها الشاب إلى ما يحصل من معرفة بل أن المقدار الذي يحصله منها في هذه السن هو الذي يشكل حياته فيما بعد، وهو الذي يرسم سلوكه الاجتماعي من حيث التكامل والنضج أو الانحراف والنقص، إن صراحة الأب وكياسة الأم يمكن أن يجعلاه يرى الحياة مليئة بالسمو والرقي، فلا يتأثر بما يراه حوله من شذوذ، أو سلوك مشين، خاصة بين زملائه خارج البيت.

إن الحصافة والقدرة في توجيه رغبة الطفل في المعرفة، واستعداده للتعليم، كفيلة وحدها بأن تجعله سعيدًا موفقًا في حياته المقبلة، وتلك هي رسالة الأم والأب قبل أن تكون رسالة المعلم الذي يلقنه دروسه المدرسية.

اشغلوا أوقاتهم بالهوايات الجميلة

في إنجلترا مكاتب عديدة لترجمة الرسائل التي تصل من الخارج بأي لغة من اللغات، وقد لا يعجب البعض مما دفعني إلى الإشارة إلى هذه المكاتب، بل ذلك النوع الذي يتوافد على

دراسته للرسائل وترجمتها. إن ظاهرة جديدة لاحظتها بين من عرفت من شابات وشبان، جعلتني اتجه إلى مكتب من هذه المكاتب، يديره رجل تعمل معه زوجته، هذه الظاهرة هي آلاف الرسائل التي تتلقاها فتياتنا وفتياننا يوميًا من الخارج، من زملاء ارتبطوا بهم عن طريق المراسلة فقط.

والرجل الذي استمر يدير مكتبا لترجمة هذه الرسائل التي ترد بلغات غريبة هي خليط من لغات العالم كله، اسمه فيكتور لانج، وزوجته اسمها أديت. وأعترف أنني قضيت وقتًا ممتعًا جدًا مع الرجل وزوجته، وسمعت أقاصيص طريفة حلوة منهما.

حدثني فيكتور لانج، وهو في الخمسين من عمره تقريبًا، وهو يبدي النواجذ من الابتسام دائمًا، قال: ماذا تتصور أننا نجد في هذه الرسائل؟ إن الشاب يكتب أشياء عجيبة جدًا في رسالة يعلم تمام العلم أنها ستذهب إلى فتاه تقيم في بلد غريب، ويعلم أن فرصة لقائه بها ضرب من الخيال، لهذا فهي في نظره أجمل فتاة في العالم، وهي أجمل مخلوقة في هذه الدنيا، وهي أنسب حبيبه لقلبه، هي فتاة أحلامه، وهي مهبط وحيه.

لقد جاءتني فتاة مرة برسالة من التبت، والتبت بلاد في قلب آسيا، أرسلها لها شاب من أهل التبت، وضمن رسالته هذه

"فراشة" زاهية اللون، ميتة طبعًا، وقام بتحنيطها، وقال لها في رسالته التي كانت مكتوبة بلغة هي خليط من البوذية والصينية: إن روح اللاما الأعظم تسكن في هذه الفراشة الجميلة الألوان التي تعيش على قمة العالم، وأنه قد بذل جهودًا جبارة ليصطاد هذه الفراشة ويرسلها لها، دلالة أنها في قلبه، ولها في نفسه مكانة اللاما الأعظم الخالد، الذي كانت روحه تسكن قلب هذه الفراشة.

ولقد نشرت إعلانًا أطلب فيه مترجمًا يعرف لغة أهل التبت ليستطيع أن يحل رموز هذه الرسالة، فأنا والحمد لله لم أذهب إلى التبت ولم أدرس البوذية، وجاءني رجل من أهل التبت يعيش هنا في لندن، جاء يدرس في جامعاتنا، وضحك عندما رأى الفراشة، وقال: إن الشاب عندما يضع هذه الفراشة ضمن رسالة يوجهها إلى فتاة أو أن يقدمها لها بيده، فمعنى ذلك أنه يريدها زوجة له، ومحال أن ترفض الفتاة الفراشة، وإلا حلت عليها لعنة اللاما الأعظم.

ثم قال لي في جد واهتمام، بعد أن ترجم لي الرسالة: قل للفتاة ألا ترفض هذه الفراشة، فروح اللاما الأعظم لا تزال تقطن جسدها، وعليها أن تحفظها وتقدسها حتى لا تتعرض للعنة..

وبالطبع سرت الفتاه جدًا بهذا الكلام، واعتبرت نفسها أسعد إنسانه في الدنيا بهذه الهدية.

وقاطعت الزوجة أديت لانج زوجها قائلة: "هذا يحدث كثيرًا، ولكن أغرب الرسائل تلك التي تتلقاها فتياتنا من شمال أوروبا ووسطها، إن عشرات الرسائل تأتي كلها من شاب يبحث عن زوجة وعن عمل أيضًا. على أن شيئًا واحدًا مشتركًا في هذه الرسائل جميعًا، وهو أسلوب روميو في مغازلة حبيبة قلبه جولييت.. إن الفتاة التي تلقت الرسالة طبعًا هي في نظر كاتب الرسالة أجمل وأشهى فتاة في العالم، حتى ولو كانت تضع نضارة سميكة فوق عينيها، وحتى لو كانت ذات أنف مفرطح ينافس أنوف الزنوج الكبيرة.

إن فيكتور لانج وزوجته أديت، يجمعان على أن مثل هذه الرسائل ترفع جدًا من روح فتياتنا، وتجعلهن يعشن أيامًا سعيدة، وتبعدهن عن المجتمعات الصاخبة العاتبة فبين تلقي الرسالة وبين كتابة الرد عليها تنفق الفتاه بعضًا من وقت فراغها. وأنا شخصيًا أجد هذا الرأي مصيبًا جدًا، بل أنني أدعو كل أب وكل أم إلى أن يشجع فتاته الصغيرة التي تقف على أعتاب فترة المراهقة، وابنه الذي دخل طور بلوغه على أن يراسلا شبانًا وفتيانا من الخارج..

إن مثل هذه الهواية الجميلة يمكن أن تسد أوقات الفراغ، والخيال الذي يكمن في جنباتها، يمكن أن يفعل الكثير في تخليص نفسيه الفتاة أو الفتى في هذه السن من كثير من الشوائب.

وهناك هوايات أخري لطيفة.. التصوير والرسم والقراءة والتعبير عن الأفكار والخواطر، والموسيقى والرياضة الخفيفة مثل الألعاب البيتية، والكرة الطائرة وكرة الطاولة بل الأهم من هذا كله هو أن يأخذ الوالد والأم أولادهما إلى النادي يومًا أو يومين كل أسبوع، إن وجود الأولاد في جو النادي الاجتماعي يرفع معنوياتهم الاجتماعية ويجعلهم يبتعدون عن أي شذوذ في التفكير أو التصرفات، إن النادي فرصة طيبة جدًا لكي يجد الشاب أو الفتاة لنفسه هواية يمارسها ويحبها ويعطيها كل أوقات فراغه، بل أكثر من هذا على الأب أن يحرص على أن تحضر فتاته وفتاه تلك الحفلات السينمائية التي يقيمها النادي، إنها تشبع تعلق الفتاة أو الشاب بالسينما في هذه السن، وفي الوقت نفسه تحقق الرقابة الفعلية، عن طريق النادي على الأفلام التي يراها الصغار، إن هيئة النادي تدخل في اعتبارها أشياء كثيرة قبل أن تختار الفيلم الذي ستعرفه.

وهواية أخرى لا تقل أهمية عن المراسلة، هي جمع الطوابع: إنها تخلق أمام الشاب والفتاة مجالًا اجتماعيًا ممتازًا يمكن أن يتحركا فيه دون خطر "الانزلاق" والشذوذ.. إن واجبنا كآباء أن نحمي فلذات أكبادنا، خاصة في السن الخطر، الذي تبدأ عندهم فيه مرحلة البلوغ والنضج من المؤثرات الخارجية التي يمكن أن تنحرف بهم. واجبنا أن نجنب الفتيات منهم هذا المصير الذي رسمه الكاتب نابوكوف في قصته "لوليتا"، ومصير سالي الذي اضطرت أمها إلى أن تأخذ نفسها بالمشقة والجهد حتى الأثر السيئ الذي يرتب على سقوط ابنتها في المجتمع المحيط بها. اضطرت الأم– باعترافها في رسالتها التي أرسلت بها إلي – أن تكذب فتقول أن ابنتها قد أصيبت بالتدرن الرئوي لتبعدها عن جدتها وهي حامل، واضطرت أن تدعي كذبًا أنها رغبت في أن تتبنى طفلًا حتى تداري زلة ابنتها، واضطرت إلى أن تهجر عملها على رغم ما كان ييسره لها والأسرة من التمتع بالكماليات لتكون قريبة من ابنتها.

على أن هذه الأم لا تستطيع أن تنتزع الأثر السيئ الذي تركته الكارثة في نفس ابنتها الصغيرة التي لم تبلغ الثالثة عشرة من عمرها، إنها، أي سالي، فقدت مرحها وإقبالها الدائب على

الحياة وغلفها ستار من الحزن والجمود سلبها كل ما هو جميل في حياتها المتفتحة وتركها كشبح يتحرك بلا إرادة وبلا وعي.

حرام أن نختار هذا المصير لأبنائنا وبناتنا، إنهم زهرات، براعم صغيرة تتفتح لتملأ الحياة من حولنا بالجمال والحب والبقاء.

وأخيرًا.. الحب فوق كل شيء..

لا أريد أن أعطي هنا دروسًا في الحب، وإن كان تعصبي لروميو، أمير العشاق وزعيم العشق واضحا كل الوضوح، إلا أنني أحب أن أقول أن الحب يصنع المعجزة دائمًا، إنه ذلك السمو والنبل الذي يحيل الانحدار الجنسي إلى عاطفة صادقة تهب الحياة بقاءها واستمرارها.

الحب إذا جاء بشكله الطبيعي الباني يصبح قوة دافعة في حياتنا شأنها التطور، وتخلص أبناءنا وبناتنا من القلق والحيرة، وتجعلهم أكثر ثقة تجاه المستقبل، وأبعد ما يكونون عن الانحدار ومحاكاة غيرهم في تصرفاتهم المشينة.

على أن ما يدهشني هو أن بعض الآباء والأمهات لا زالوا يقفون في وجه الحب، إنهم يعتقدون أنه سر هذه المآسي التي

تحدث اليوم في مجتمعنا، وضحاياها في العادة من الشباب والفتيات. بينما ثبت من كل ما قدمت من دلائل ومن كل ما نشر من تقارير العلماء والخبراء والباحثين أن إهمال الوالدين هو السبب المباشر لانحراف فتياتنا وشبابنا. ودعوني أروي لكم القصة التالية، وقد حدثت في ليفربول لتعلموا مدي التعصب الشديد الذي لا يزال بعض الآباء يأخذون به أنفسهم تجاه الحب.

التقت فيرجينيا، وهي فتاة من أسرة طيبة في مدينة ليفربول بالبحار بول، وتحابا وقوي الحب بينهما فجمعهما في رباط عاطفي محكم، وعلم والد فيرجينيا بالأمر فإذا به يثور. قال لابنته أن مثل هذا الشاب، يقصد بول البحار، لا يمكن أن يصلح حبيبًا أو زوجًا لها، بل أنه مضى يروي لها قصصًا عديدة عن البحارة الذين يهبطون الموانئ ليتخذوا في كل ميناء حبيبة أو عشيقة دون أن تربطهم مواثيق أو يجمعهم حب كبير خالد بمن يحبون، ولكن جينا الصغيرة كانت قد وجدت في بول فارس أحلامها، ولم يعد هناك مجال على الإطلاق لتشويه الصورة الجميلة الحلوة في ذهنها التي ارتبطت بكل ما عاشت له من ترقب للحبيب الذي جاء على ظهر جواد طائر لحملها إلى قصر الأحلام. ولم تعبأ

جينا بما قاله والدها، ولم تنته عما نهاها بل انطلقت تقابل بول وتمنحه الهوى والغرام ما استطاعت إلى ذلك سبيلًا.

على أن الوالد ثار ثورة كبيرة على جينا الرقيقة الحالية ذات الستة عشر عامًا. أخذها إلى أعلى حجرة في بيته المبني على الطراز الغوطي القديم، حجرة في أعلى البيت كبرج من أبراج القصور القديمة التي سادت القرون الوسطى وأغلق عليها الحجرة ووضع رتاجًا غليظًا على الباب من الخارج، ثم أرسل يستدعي الحبيب البحار بول، وانطلق يسمعه كلامًا قارصًا عجيبًا. ولكن ذلك لم يفت في عضد بول، ولم يجعله يفقد اتزانه أو يتراجع أمام تهديدات الأب الثائر.

وعندما وجد الأب أن الغلظة والشدة في القول لن يحققا شيئًا مع البحار العاشق، انطلق يتحدث في رقة عن المستقبل الذي يعده لابنته، وناشد بول أن يكون كريمًا فيتركها لمستقبلها ويغادر المدينة حرصًا على سعادتها، ووعده بول بأن يغادر المدينة في التاسعة من صباح اليوم التالي..

وانطلق الأب فرحًا إلى الحجرة التي سجن فيها ابنته. قال لها أن بول لا يحبها وأنه سوف يغادر المدينة في صباح اليوم التالي، ويتخلى عنها. وبكت جينا، فهي لم تكن تصدق أن بول

يمكن أن يتخلى عنها هكذا ويتركها حبيسة البرج مع سجان غليظ القلب هو والدها.

وقضت جينا ليلة رهيبة في سجنها، لم تنم ولم تنشف عيناها من الدموع إطلاقا، كانت تبكي بألم وحزن، تبكي هذا الغدر المشين من فارس أحلامها الذي تصورته شهمًا نبيلًا.

وفي الثامنة من صباح اليوم التالي، طرق باب البيت الخلفي بائع متجول لأدوات المنازل، ووقف مع الوالد المنتصر يثرثر في إلحاح، ولا يقبل بحال أن تتوقف ثرثرته مع الرجل، كان من الواضح جدًا أنه يشغله بالحديث ويطنب في شرح محاسن سلعته كسبًا للوقت. وأمام الباب الأمامي في الشارع الرئيسي شاهد المارة عجبًا.. جرارًا كبيرًا من جرارات البحرية يقف أمام البيت، وهو يحمل ونشًا ضخمًا جدًا مما يستعمل في تفريغ البضائع من السفن، ومضى الونش يرتفع تجاه الحجرة العالية التي سجنت فيها "جينا" وبول يتعلق بقمته، وكانت جينا تطل على الطريق من نافذة سجنها، وما إن رأت بول يرتفع إليها حتى دارت حول نفسها ترقص في طرب، وقذفت بجسدها كله خارج النافذة عندما حاذاها بول وألقت بنفسها بين ذراعيه، ومضى "الونش" يهبط من جديد وقد حمل العاشقين.

ولم تمض دقائق أخرى حتى كان الجرار يتحرك بالعاشقين السعيدين ليختفي عند منحنى الطريق، والبائع المتجول لا يزال يثرثر مع الأب عند باب البيت الخلفي.

إن الحب هو العاطفة التي تسير العالم، وتتحكم في كل مظاهر الحياة الطيبة من حولنا. ويجب أن نعلم أولادنا وبناتنا الحب، كما يجب أن نفتح مداركهم على قوة النبل والسمو في تلك العاطفة البانية، خاصة عندما يبدءون مرحلة نضجهم لنجنبهم هذه المآسي التي يتعرض لها شبابنا في هذه الأيام، هذه المآسي التي يندى لها جبين كل رجل في المجتمع خجلًا..

إننا في حاجة إلى المزيد من الفهم، فهمنا لمشاكل أبنائنا وبناتنا في سن نضجهم، وفهمهم هم لحقائق الحياة وأسرارها وتطوراتها والعواطف التي تتحكم فيها.

القسم الثاني

بعد السادسة عشر

الحقيقة الكاملة

في بريطانيا ملايين من الشباب والفتيات في سن المراهقة، وفي خلال عامين أخذت أنقب في أذهانهم وقلوبهم، كانت رحلة استكشاف للبحث عن: كيف يفكرون، وكيف يسلكون، ثم عن الأمل الذي يعيش في فكيرهم ويسير سلوكهم ونوعيته.

وأشير هنا إلى أن الرحلة الاستكشافية هذه لم تكن لتتم، لولا المساعدة القيمة التي لقيتها من نوادي الشباب، وهيئاته، ونوادي الفتيات المقصورة عليهن، أن هذه الهيئات وهذه النوادي تضم ١٤٣ ألف عضوًا بين شاب وفتاة اتصلت بهم جميعًا لكي أسترشد بهم وأستعين بجهودهم لإتمام بحثي، وللانتهاء من رحلتي الاستكشافية في قلوب المراهقين وعقولهم.

وأعتقد أن الحقائق التي وصلت إليها، والتي أنشرها اليوم، تعتبر من أهم ما وصل إليه باحث في هذا الجيل، ولست بهذا أحاول الفخر، بل لسبب بسيط أستطيع أن أوجزه فيما يلي:

"إن نشر هذه الحقائق، سيعطي الآباء والأمهات نظرة جديدة تجاه بناتهم وأبنائهم. أنها تساعد كل أب وكل أم على

فهم تصرفات لشباب، من فتيات وفتيان، تلك التصرفات التي ما زالت مبعث حيرة الكثيرين.. بل هي صورة مدهشة للنساء والرجال الصغار الذين لا يلبثوا أن ينضموا إلينا نحن الكبار، وينشئون الأسر، ويقيمون المجتمعات التي تشكل وجه الحياة في العالم، إما عن فضيلة، أو عن شر وسوء".

ملايين من المراهقين والمراهقات، شباب وفتاة، في بريطانيا قي تسببت تصرفاتهم في صدمات وانفعالات مستنكرة في نفوس الجيل البالغ من الآباء والأمهات، خمسة ملايين تتراوح أعمارهم بين ١٦ و ١٩ سنة، قد بدأ المجتمع الإنجليزي ينظر إليهم بعين الرعب والإشفاق والترقب، ولعل سر هذا الرعب هو ما يتوارد يوميًا من حوادث، سكاكين تتطاير في الهواء لتقتل، ومدى صغيرة تستل لتشوه وجه فتاة أو فتى، أو غير ذلك من الجرائم المنحرفة التي تتسم الشباب في هذا السن بالوحشية والقسوة والخطورة، حتى أصبح معنى لفظ شباب هو الانحراف وسوء السلوك والوحشية.

والجيل البالغ من الآباء والأمهات، قد تعود أن يعمي عينيه عن أخطار هذه السن، أو هو يتحرك بحذر وحرص بين المجموعة الضخمة من الشبان والفتيات الذين في سن المراهقة.

ولكن بعض الكبار كانوا أكثر حرية في التعامل مع هذا العدد الضخم الذي يطلقون عليه لقب "الوحوش الصغيرة"، ولي الفخر بأن أكون أحد هؤلاء الكبار الذين حاولوا أن يستكشفوا ما في عقول هذه "الوحوش الصغيرة" وما في أعماق قلوبها.

وأول الحقائق التي اكتشفتها هي أن هؤلاء الملايين الخمسة، ليسوا برابرة على الإطلاق، وليسوا "وحوشًا صغيرة" تنشب أنيابها في مثل المجتمع، رغم ما قد يتأتى منها من سلوك مقرف مشين في أكثر الأحيان، هم ليسوا إلا أخاك أو أختك أو ابن الجيران أو بنت الجيران، ولقد حصلت على إجابات من ٢٠٠٠ ابنًا وبنتًا للجيران على نصف مليون من الأسئلة على الأقل، وذلك بمساعدة نوادي الفتيان والفتيات المشتركة، وهيئات الشباب الأخرى.

لقد وزعت آلاف التذاكر في استفتاء لهم، وقد أجابوا على الأسئلة والأجوبة بصراحة وصدق ساعداني تمامًا في إتمام بحثي المسهب هذا.

ولقد أثارني أن أجد كل الفتيان والفتيات الذين اشتركوا في هذا الاستفتاء يتحرقون شوقًا إلى أن يعرفوا النتيجة مثلي ومثل الكبار الذين أشرفوا معي على الاستفتاء، كلهم كان يريد أن

يعرف أين مكانه، وأن يرى نفسه. وها هي النتيجة الإجمالية التي تشرح لنا حقيقة شباب ١٩٥٩، كما كشف عنها هذا الاستفتاء.

إن واحدًا من كل سبعة من الفتيان تحت سن الحادية والعشرين، يكسب أكثر من ٧ جنيهات في الأسبوع، وواحدة من كل تسع فتيات تكسب أكثر من ٦ جنيهات.

ونصيب الوالدين من هذا الكسب لا يتعدى الجنيهين في الأسبوع من الابنة، بل أنه فوق المتوسط. وأكثر دخل الشباب ينفقونه بأنفسهم، والجانب الأكبر منه ينفق على السجائر وارتياد البارات، والذهاب إلى السينما، ولا يكاد الشاب أو الفتاة يشتري إلا أقل القليل من الملابس، أو ينفق شيئًا على الرياضة، وعلى الرغم من هذا فروح الاقتصاد والادخار منتعشة فيهم.. إن ثلاثة أرباع الشباب، فتيانًا أو فتيات، يدخرون المال لشيء ما.

رجعية الكبار

إن نصف العدد الذي اشترك في الاستفتاء من الفتيات، يعتقدن أن من الخير لهن أن يتزوجن قبل سن ٢١ وربع العدد قد قلن أنهن بالفعل قد اختزن فتى الأحلام منذ سن الرابعة عشرة.

ونصف الفتيان يعتقدون أن الكبار رجعيون ومحافظون فيما يتصل بالجنس، بل أنهم قد عانوا أكثر من مرة من تجاربهم مع الكبار، فيما يتصل بهذا الموضوع، واعترفوا جميعًا بأن موضوع الجنس يثيرهم، وهم يندفعون إلي التجربة ليعرفوا الحقيقة، تمامًا كما قد يراقبون "لاعبي الدومينو" ليعلموا بفكرة صحيحة عن اللعبة، وليكونوا على علم بها من باب العلم بالشيء.

مكان الوالدين في نفوس الشباب

والآن تعال ندخل لقلب الموضوع، من قلب العائلة، فإننا سنرى شعور الأبناء والبنات تجاه آبائهم..

"إنني أثق بوالدي وأتشرف بهما، وأنا حقيقة شاكرة جدًا لهما كل ما فعلاه من أجلي، بل أنني أشعر بأنني لا أستحق كل هذا الحب الذي يحيطانني به".

هذه كلمات فتاة في السادسة عشرة من عمرها من يكنجهام شير، تتحدث عن والديها، ومعظم الشبان والفتيات يدينون بنفس الفكرة ويستخدمون نفس الألفاظ المؤثرة.

وقال شاب يعمل "طبيبًا" وكان في أجازة:

"إنني أحبهما لكل ما قد فعلاه من أجلي، لأنهما كانا دائمًا

ساهرين بجوار فراشي في ساعات مرضي، ولأنهما أرشداني وحمياني دائمًا من الزلل ومخالفة القانون، بل لأنهما كانا خير أبوين يمكن أن أتمنى أن يكونا لي"

ولقد قال اثنان من كل ثلاثة من المراهقين، بأنهما حقًا يحبان والديهما، وعندما كانا يسألان هل يحبان الأب أكثر أو الأم قال ١٥ من كل مائة أنهم يدينون بالحب للأم أكثر من الوالد.

وعلى الآباء أن يعلموا جيدًا أن هناك هوة واسعة بينهم وبين أبنائهم وبناتهم، أوسع مما بين الأبناء وأمهاتهم.

ولقد قال شاب في الثامنة عشرة من عمره أنه يكره والده بشكل كبير، ولقد جاءت شعبية الأم أكثر من الأب، وكانت النسبة ٣:١، وإن كانت الفتيات يعشقن آباءهن بشكل مضطرد، بل يفضلنهم على الفتيان في أحيان كثيرة. وأثبت الاستفتاء أن سكوتلندا هي مهد الأبناء المخلصين، بينما جاءت لندن وشمال شرق إنجلترا في ذيل القائمة.

وتعلل بعض الفتيات عدم شعبية الأب، بأنه يميل كثيرًا إلى أن يعظ ويرشد في السنين العصيبة، ولا يبدي شيئًا من

الانسجام، إن فتاة من مقاطعة "كنت" في السادسة عشرة من عمرها أجابت قائلة:

"إن أمي تساعدني دائمًا في كل المتاعب التي يسببها لي صديقي "البوي فرند"، بينما والدي لا يعلم أنني أخرج مع الشبان، وإذا حدث وعرف فسوف لا يسمح لي بأن أخرج من البيت"

والانسجام يلقى الترحيب في أشياء أخرى عديدة بجوار المتاعب العاطفية، فقد قالت فتاة أخرى في السادسة عشرة من مقاطعة لانكشير:

إنني أحب أمي لأنني أستطيع أن أتكلم معها بحرية، إنها تساعدني وتمدني بالنصح، وتبدي اهتمامًا بكل ما أفعله وما أمارسه من نشاط، أما والدي فهو يحصي دائمًا أخطائي بصورة دقيقة، وكانت النتيجة أننا نتشاحن دائمًا، ونختلف باستمرار.

أما الأولاد، فيبدون أقل اهتمامًا بمشاركة ذويهم لهم في مشاكل حياتهم، بل أنهم يحبذون التجاهل الذي يبديه الآباء تجاههم، قال شاب في التاسعة عشرة من عمره:

"إنني مغرم تمامًا بوالدي، أن والدتي طيبة تجاهي دائمًا، ووالدي في العادة يتركني لشأني".

والأبناء دائمًا حساسون تمامًا تجاه أخطاء الآباء، ولكنهم يبدون فهمًا وتقديرًا لهذه الأخطاء عادة، قالت فتاة لا تتجاوز الخامسة عشرة عن والدها. إنه غضوب عديم الصبر، وسرعان ما يثور، ولكنني أحبه.. أحيانًا يقول أنه سوف يهجرنا ولكنه في الحقيقة، يعاني آلامًا من المعدة، تدفعه إلى أن يبدو بهذه الصورة. وعندما يحدث أن تنهار البيوت، وتتفرق العائلة، سواء بالطلاق أو الموت أو الانفصال تبدو آثار عنيفة على الأولاد والبنات.

إن الأم في العادة تحتفظ بالأولاد والبنات بعد الطلاق، ومن الطبيعي عندئذ أن يقل حبهم للأب ولكن هناك اعترافات رائعة لفتيان وفتيات عن حبهم وحبهن لزوج الأم عندما تعود وتتزوج غير والدهم.

قالت فتاة في السابعة عشرة من عمرها، تتحدث عن أمها وزوج أمها:

"إنهما يثقان بي ويبديان كثيرًا من الفهم، إنهما قطعة عزيزة جدًا على نفسي من حياتي.."

وهناك فتاة تصرفت تصرفًا غريبًا، ونشرت القصة مجلة "وومنز ميرر" وبطلة هذه القصة اسمها تانيا وهي في السابعة عشرة من عمرها، سجن زوج أمها جورج داوسون ستة سنوات، وكانت تانيا تعمل وتكسب ٦٠ جنيهًا في الأسبوع كموديل للمصورين، وقد صرحت تانيا بقولها على أثر الحكم بسجن زوج أمها: "إنني أعمل بكل طاقتي لأساعد أمي، ولقد كان زوج أمي رائعًا بالنسبة لي دائمًا، إنه رجل عظيم وسأظل دائمًا أعجب به وأقدره، ولكن تلك هي عادة الناس دائمًا، من يسقط فيها انهالوا عليه بالأقوال القاسية البذيئة".

وتعيش تانيا مع أهلها الآن في شولسا بلندن، وتتولى الإنفاق على البيت، وكأنما رب الأسرة لم يسجن، ولم يغب عن البيت.

المساهمة في ميزانية العائلة

إن نصف من أجابوا على الاستفتاء من الشباب، قد أكدوا اعتقادهم بأن ميزانية أسراتهم في البيت تتراوح بين ١٣ و ٢٥ جنيهًا في الأسبوع، إن كان البعض قد اعترف بأن دخل الأسرة لا

يزيد على ثمانية جنيهات، وهذا شيء نادر، وعندما يعمل الشباب ترتفع ميزانية البيت إلى ٢٥ جنيهًا بما يساهمون به في ميزانية العائلة، وقد يصل المبلغ إلى الضعف إذا كانت للأسرة فتيات عاملات.

وبالطبع قد يسمح الأجر الذي يتقاضاه الشاب بأن يحتفظ لنفسه ببعض الذي يكسبه، ولن تجد شابًا يعطي الأسرة أجره كله إلا في حالة الضرورة القصوى، وإلا إذا كانت الأسرة تحتاج بشكل ملح لهذا الأجر.

وعلى سبيل المثال، أذكر ذلك الشاب الذي لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره في مدينة ميدلاند، وهو العائل الوحيد لأمه بعد أن توفي والده، وقد اعتاد أن يسلمها الجنيهات الستة التي يتقاضاها كل أسبوع، واعتادت هي أن تعطيه عشرة شلنات لينفق منها على مواصلاته وشراء سجائره.

وفي نفس المدينة نجد فتاة في السابعة عشرة من عمرها، تعمل كحائكة للثياب تعطي أمها جنيهًا واحدًا فقط في الأسبوع، وتنفق عشرة شلنات على "المشروبات".

ولكن الدخل في عائلتها يتراوح بين ١٧ جنيهًا و ٢٥ جنيهًا في الأسبوع الواحد، ومتوسط ما تعطيه الفتاة التي تقل سنها عن الواحدة والعشرين هو جنيهان في الأسبوع، ونجد فتيات في السادسة عشرة يدفعن للأسرة مبلغًا أكثر من ذلك، بينما هناك فتيات في التاسعة عشرة يدفعن مبلغًا أقل من الجنيهين.

ونجد معدل ما يدفعه الفتى لوالديه يرتفع إلى جنيهين وعشرة شلنات، ربما لأن الشاب في العادة يتناول أجرًا أكبير من أجر الفتاة، ولكن قلائل من الشبان هم الذين يملون في سن المراهقة، لأنهم في العادة يكونون ما زالوا طلبة في المدارس ليصلوا إلى التعليم العالي، بينما تكتفي الفتيات بالمرحلة المتوسطة من التعليم في أغلب الأحيان.

ومصروف اليد للفتيان الذين لم يعملوا في سن المراهقة يتراوح في العادة بين ٦ و ١٢ شلناتً بينما المتوسط بالنسبة للفتيات غير العاملات لا يزيد على ٩ شلنات، بل أن ثلثي الشبان تحت سن السابعة عشرة لا يتعدى مصروف يدهم الشلنات العشر.

الملاهي.. والمسرات

والثلث فقط من "مصروف اليد" ينفقه الشباب على ارتياد دور اللهو والملاهي، ومن الغريب أن تجد أكثر المراهقين عندنا يدخرون ربع ما يدخل لهم من مال، وهذا ينصرف على الفتيان سواء بسواء، على الرغم من أن الفتيان أكثر ميلًا إلى الإنفاق على أوجه اللهو الأخرى.

إن الشاب يشتري بشلنين على الأقل من كل جنيه يدخل له ملابس، وتنفق الفتاه ٣ شلنات. ويستهلك التبرع للكنيسة، والكتب المدرسية، وأجر الأوتوبيس والهدايا وطوابع البريد ربع مصروف اليد تقريبًا.

ولكنني وجدت شابًا في الخامسة عشرة، تلميذ في إحدى مدارس مقاطعة يورك ينفق مصروف يده على النحو التالي: ٥ شلنات للسينما، و٤ شلنات لمشاهدة مباريات كرة القدم، وشلنين في ناديه الذي يشترك فيه كل عضو زيادة على ٧ شلنات للملابس.

ونصف المراهقين الذين ما زالوا تلاميذ في المدارس يكسبون من العمل، أما أن يعملون في وظائف بعد الظهر، وأما أن يعملوا طوال فترة العطلة المدرسية، والقليل من أجرهم الذي يكسبونه من العمل يعطونه لوالديهم، بين ١٠ شلنات في الأسبوع و١٥ شلنًا في اليوم، وجزء كبير منه يدخر شيئًا لينفقه في أيام الأجازات.

ولقد وجدت فتاة في السابعة عشرة، تقطن ميناء من الموانئ الشمالية، تكسب في أيام العطلات ٥ جنيهات في الأسبوع، تنفق منها أربعة جنيهات على النحو التالي: أسطوانات الجرامافون وأدوات التواليت والسجاير والملابس وجنيهًا للشراب، أي أنها لا تنفق أجرها كله.

ولكن الغالبية الكبرى من الشباب، يدخرون دائمًا لسبب ما، إن شابًا من كل خمسة شبان من السابعة عشرة يدخر ليحصل على دراجة. وحتى في سن الخامسة عشرة نجد فتيانًا يدخرون، وتعليلهم لهذا هو: "حتى أستطيع أن أجد بيتًا جميلًا عندما أتزوج".

وثلاثة أرباع الفتيات مدخرات كالفتيان تمامًا، ولقد قالت لي فتاة في الخامسة عشرة من عمرها من مقاطعة يورك: أنها تدخر لتستطيع أن تقيم لنفسها بيتًا مستقلًا. وفتاة في نفس السن من مقاطعة "كنت" قالت لي: أنها تدخر لكي تقيم شاهدًا حجريًا على ضريح والدها، بعد أن يموت!

ولكن، هل تلك الحرية الاقتصادية التي يتمتع بها الشاب اليوم، تجعلهم يستقلون بشكل أو بآخر عن والديهم؟

إن شباب اليوم، مازالوا يرتبطون بوالديهم ارتباطًا وثيقًا في الدين، وسلوكهم تجاه الجنس الآخر، وثلاثة أرباع الذين أجابوا على أسئلتي قد أجابوني بأنهم نشئوا في عائلات متدينة، وتعلموا المحافظة على عقائدهم والإخلاص لها، ولم يتحولوا عن هذه أبدًا، والنتيجة المباشرة لهذا هي: أن أربعة من كل خمس من الفتيات والفتيان قد قالوا أنهم سوف يحرصون كل الحرص على أن ينشئوا أطفالهم بعد الزواج نفس النشأة الدينية التي نشئوا عليها، ذلك على الرغم من بعض القلق الذي ينفجر في سن المراهقة تجاه العقيدة والإيمان.

إن الشباب يفكر بعمق فيما يتصل بالدين، حتى ولو كان تفكيره يتماشى مع الخط الذي يسير فيه والديه، وفيما يتصل بالجنس نجد نفس العمق في لتفكير، ولكن الكبار من الآباء والأمهات قد لا يرضون عن نتائج هذا التفكير من الشباب.

وبين كل ٢٠ شابًا ممن سألتهم، أجابني ٩ شبان بأن الكبار في العادة "رجعيون ومتزمتون فيما يتصل بالجنس"، وتلك نتيجة ليست غير متوقعة بين جيل جيد مملوء بالحياة والحيوية، ولكن الذي يجب أن يضعه الآباء والأمهات أمام أعينهم جيدًا، هو ما جاء في ملاحظة أبداها شاب في التاسعة عشرة من عمره عندما قال لي: أنهم يعلمون الكثير عن الجنس وحقائقه، الكثير جدًا عما أعرفه أنا، ولكنهم يغلقون أفواههم فلا يقولون شيئًا.

وبين كل الشبان في هذا السن من ١٦ إلى ١٩ نجد واحدًا من كل شاب لا يعرف سر التطورات التي تطرأ على جسده في سن المراهقة، أنه لا يفهم التحول البدني الذي يأخذ مكانه من جسده، وبين كل ٩ فتيات نجد فتاة لا تعرف سر هذا التبدل الجسدي، الذي يطرأ عليها في هذا السن ولا تفهمه.

والفتى والفتاة لا يفهمان التطور البدني، لسبب بسيط، لأن أحدًا، وحتى والديهما لم يقل لهما شيئًا عن هذا التطور والنمو، وواحد فقط من كل ثلاثة فتيان أو فتيات، تعلم "حقائق الحياة" من والديه أو والديهما، وكثيرون جدًا يعرفون هذه الحقائق من زملاء الدراسة، بينما نجد ٤٥ من كل ١٠٠ يقولون أنهم قد درسوا هذه الحقائق في المدرسة، وآخرون يقولون أنهم قد عرفوها من زميلاتهم في العمل أو النكات البذيئة، أو من عن طريق الخبرة.

ولا شيء يثير الدهشة إذن، إذا وجدنا أن شبان اليوم يتأثرون بأصدقائهم أكثر من تأثرهم بآبائهم وأمهاتهم، عندما يبدءون من تكوين مفاهيمهم عن الحب والزواج. بل أن من الصعب أن نجد واحدًا من كل عشرة يوافق والديه على نظرتهما تجاه الجنس، تلك النظرة التي تبدو من وجهه نظر العقيدة الدينية والمجتمع حكمية ومتعقلة.

ماذا يريد الشباب؟

روت لي مرة سيدة في العقد الثالث من عمرها قصة غريبة جدًا من تلك المشاكل التي يقرأها الإنسان في أعمدة الصحف، ويداخله الشك في صحتها، قالت السيدة:

"ابنتي عمرها ١٧ سنة وقد تركت البيت لأنني منعتها من أن تتجول في الطرقات في ساعات الليل، وتشتري أسطوانات الروك أند رول، وعندما ذهبت استنجد بالشرطة.. قابلني الضابط المختص وقال لي: إنني لا أستطيع أن أفعل شيئًا، وأن ابنتي ما دامت سنها ١٧ سنة فهي تستطيع أن تفعل ما يحلو لها بحرية، وإن القانون لا يستطيع أن يفعل شيئًا حيالها، ولا حتى أنا".

وسكتت السيدة لحظة ثم قالت لي: "هل يلام الآباء إذا أرادوا أن يحموا حياة أبنائهم المراهقين، لا يساندني القانون لكي أنظم حياة ابنتي بالشكل الذي يفيدها، ولقد جئت إليك أنشد العون، فقد قيل لي أنك خبير بالشباب وأطوارهم الغريبة".

وقلت لهذه السيدة أن الابنة ما دامت قد أتمت السادسة عشرة من عمرها فلا وصاية لأحد عليها، هذا ما يقوله القانون، اللهم إلا إذا ألقت بنفسها في مشكلة من المشاكل التي تضعها تحت طائلة القانون، وهنا فقط يضع القانون عليها الوصاية، ونصحت الأم، وكانت تبدو من الجيل المتزمت من الأمهات بأن تكون أكثر لينًا وأكثر رفقًا في معاملتها لابنتها، وحاولت جاهدًا أن أجعلها تفهم بأنه لا ضير إطلاقًا على ما تفعله، لم أكن أعتقد أن الابنة على درجة من السوء كما صورتها أمها لي. بل أن مثل هذه الأم المتزمتة الرجعية، التي تحاسب ابنتها على كل شيء نجدها في كل مجتمع خاصة في المدن البعيدة عن العاصمة.

نشرت مرة إحدى الصحف اليومية رسالة غريبة جدًا من فتاة في الثامنة عشرة من عمرها اسمها ديانا نورمان، تعيش في قرية من قرى أسكتلندا اسمها "جارد ستون" كانت تصف تزمت مجتمع القرية ورجعيته، فالنساء هناك كن يعتقدن أن طلاء الشفاه بالروج جريمة لا تغتفر.

وتابعت الفتاة في رسالتها تعدد نواحي الرجعية هناك، فذات مرة فتح أحد الحلاقين محلًا لتصفيف شعر السيدات، واضطر إلى إغلاقه بعد شهر واحد لأنه لم يتلق في محله زبونة واحدة،

والثياب وظهور المرأة في الطريق، وغير هذا من الأمور التي تبين إلى أي مدى تصل الرجعية والتزمت ببعض المجتمعات في القرى والمدن الإقليمية.

علي أن فتيان المدن الكبرى، وفتياتها أكثر انطلاقًا من أنهم يفعلون ما يريدونه، ولا زلت أذكر تلك القصة التي نشرتها الصحف أيضًا عن فتى وفتاة، الفتى جيمروف والش مصور أيرلندي في التاسعة عشرة من عمره، والفتاه أنجيلا مانويل في الثامنة عشرة التقيا في أحد الأيام في إحدى الحفلات ورقصا معًا، وفي اليوم التالي خطبت أنجيلا جيروف زوجًا لها، لم تنتظر أن يخطبها، وفي اليوم الثالث ثم وزجهما في أحد مكاتب التوفيق المدني للزواج

ولقد صرح جيروس بقوله: أنه كان ينوي خطبتها قبل أن تخطبة، ولكنه كان مفلسًا، وكان عاطلًا عن العمل، وعاشا بعد الزواج على الأجور التي تتقاضاها وتبلغ ستة جنيهات في الأسبوع، ولعل الكثيرون يتساءلون مثلما أتساءل: "ماذا يدور في عقول الخمسة ملايين مراهق في مجتمعنا؟.. كيف يفكرون في مستقبلهم وفي عائلاتهم وفي الوظائف التي يحبون أن يشغلونها، بل كيف يفكرون في أنفسهم، وأعود إلى الاستفتاء الذي أجريته،

واستجوبت فيه ألفي فتى وفتاة، وأعود إلى الحقائق التي استخلصتها منه، لأجيب لنفسي ولكل المسائلين على السؤال"

إن ثلاثي الفتيان والفتيات يجدون العمل بمجرد أن يصلوا إلى سن السادسة عشرة، وهذا التحول المفاجئ، الذي يدفع بالشباب إلى المصانع أو مكاتب العمل في الشركات يقلق بعض المتدينين من الكبار: قال أسقف كنتربري في حديث له أذيع مؤخرًا: أن الأولاد الذين يتربون في مدرسة جيدة، وينشئون في أسرة طيبة، يذهبون إلى المصانع في سن الخامسة عشرة. وهناك وفي هذه السن يلتقون وجهها لوجه بحقائق الإنتاج الصناعي والمادي، ولا تلبث مبادئ التربية الجيدة التي تلقوها في البيت أو المدرسة أن تختفي وتضيع. ومن المذهل أن يكشف الاستفتاء الذي أجريته، بمساعدة نوادي الشباب وهيئاته عن خطأ هذا الرأي الذي نادى به الأسقف المبجل.

إن جولة سريعة بين الشباب ونظره سريعة إلى ما يعتقدونه، يظهر خطأ الرأي الذي نادى به الأسقف المبجل. إن الغالبية الكبرى بين الشباب العامل، تستهدف أن تكون سعيدة في عملها، ولقد حصلت على هذا الجواب عشرين شابًا وفتاة مقابل شاب واحد يقول أنه يبحث عن المادة وعن الأجر الأكبر عندما

سألت الشباب عن السبب الذي يحدو بهم إلى تغيير العمل الذي يمارسونه. ووقت بعد آخر، نجد الشباب يميل إلى تلبيه الدافع الملح إلى فعل الخير، ولقد قالت لي مرة ممرضة تعمل في إحدى عربات الإسعاف التي تلحق بالقطارات:

أنني أحب أن أساعد الناس، وأنا مهتمة جدًا بتشريح الجسد البشري. بل أن فتاة من جرمسباي قالت لي: أنها تحس براحة نفسية عظيمة، وذلك من مساعدة الآخرين. وقالت فتاة تعمل عند كوافير عن مهنتها: ولكل فتى وفتاة في سن المراهقة عملا يتمنى بأن يمارسه، وأن كان تقدمهم في السن يجعلهم يدركون أن من الصعب تحقيق هذا الحلم.

والعمل الذي تحلم به كل فتاه في هذه السن هو أن تكون موديلًا، تقف أمام عدسات المصورين، وتتمدد أمام الرسامين وهم يرسمونها، والنصف منهن تمامًا يحقق هذا الحلم، أما الغناء والتمثيل والعمل كمضيفة فقد أصبح شيئًا شائعًا، ولم يعد حلمًا الآن، ولكن فتاة تعمل مدققة حسابات في لندن، قالت لي أنها تحلم بأن تصبح نجمة ومطربة، وهي لم تزل بعد في السابعة عشرة.

وفي العادة يختفي الحلم الذي يعيش في أذهان الفتيان عن العمل الذي يريدونه لأنفسهم، عندما يبلغون سن الثامنة عشرة، عندما يصبحون أكثر تعقلًا ويصيرون عمليين وواقعيين.

والحلم الذي اعتاد أن يدور في أذهان الفتيان قبل سن الثامنة عشرة، هو أن يصبحوا "مشهورين"، رجالا يصنعون الأحداث كلاعبي كرة القدم والملاكمين وجوكي السباق، وحتى هؤلاء الذين يحصلون على أجمل ما في الحياة، تراودهم الأحلام بشأن تغيير عملهم الذي يؤدونه، حتى هؤلاء الذين يتدربون على أن يصبحوا أطباء أو علماء، تراودهم الأحلام في أن يغدوا شيئًا آخر. قال لي شاب في السابعة عشرة، يتمرن على أن يصبح طبيبا:

"إنني الآن أتدرب على أنبل مهنة إنسانية، ولكني أريد أن أصبح عالمًا تملأ أبحاثه واكتشافاته صفحات المجلات العلمية، وتنشر الصحف رسومه في صدرها، أنني أعتقد أننا وجدنا في الحياة لنضحي بأنفسنا، ولسوف أروض نفسي على خدمة الإنسانية".

وبالطبع لا يحصل كل واحد على العمل الذي يريده، ولكن ليس هناك أقل شك فيما يريده الشاب العامل من العمل الذي يؤديه، أن يجد السعادة في القيام بعمله، تلك هي أمنية كل شاب عامل، لهذا كان من الخطأ أن يقول أسقف كنتربري المحترم: أن المادية تطغى على الشباب، وتقتل فيهم روح التربية الصحيحة ومبادئها التي تلقوها في البيت أو المدرسة

بل لا أكون مخطئًا إذا قلت أن الوالد قد يصبح في بعض الأحيان عاملًا مهمًا في تدمير العمل الذي يسعى إليه الابن، وها هي قصة حزينة تعطي مثلًا لما تصبح عليه الحال عندما يتدخل الوالد في شئون ابنه ويفرض عليه إرادته، كتب أحد الشبان وهو في الثامنة عشرة من عمره يقول:

"معنى أن يولد المرء في بيت كله رجال أعمال، فالرغبة الفردية لا مكان لها، أن والدي مشغول الذهن دائمًا بأشياء كثيرة، ولا أتذكر أننا قد جلسنا مرة أنا وهو، نناقش أمرًا ما، بل أنه في الحقيقة لم يجلس منذ ثلاث سنوات إلا لنناقش العمل، العمل وحده، لقد اختار لي هو العمل رغمًا عن إرادتي، ولا يزال يرسم والدي لي كيف أنجح، ولقد اكتفيت من هذا كله، فأنا لا أريد أن أؤدي شيئًا من هذا الذي ينصح به بل أنني لا يمكن أن

أسجل أي نجاح في العمل الذي اختاره لي والدي.

ونصيحتي المخلصة لكل أب وأم، هي أن يعطوا أبناءهم وبناتهم، في هذه السن بالذات من السادسة عشرة حتى التاسعة فرصة أن يحققوا ما يسعون إليه، لقد دلت إجابات الشباب والفتيات على أنهم يعرفون تمامًا ما يسعون إليه، وأغلبهم يرسم لنفسه أهدافًا يريد أن يحققها، ويعرف أيضًا أنه يجب أن يقيم مستقبله على خطوط سليمة لما يجد فيه خيرًا لنفسه، وأملي أن أكون قد أفلحت بكتابي هذا في توضيح ذلك، حتى يجد الآباء ما يسترشدون به، فينصفون أبناءهم وبناتهم.



الفهرس